مجلة العلوم العربية والإنسانية
جامعة القصيم، المجلد (١٢)، العدد (١)، ص ص ١٨١-٢٣٩، (محرم ١٤٤٠هـ/ سبتمبر ٢٠١٨)

الوَظَائِفُ التَّعْبِيرِيَّةُ في رَسَائِلِ الجَاحِظِ الأَدَبِيَّةِ
(رِسَالَةٌ في الجِدِّ والهَزْلِ) أنموذجًا
(دراسة إنشائية)

د. صالح بن عبدالله بن صالح التويجري
الأستاذ المساعد في قسم الأدب
كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث. هذه الرسالة صورة من صور إبداع الجاحظ وروعة بيانه، تجلَّى فيها على حال أخرى مغايرة للحال التي شاعت عنه وعُرِف بها، إذ عرفناه مَرِحًا هازلاً يخلط الجِدَّ بالهزل في كثير من مصنفاته، لكنه بدا هنا مكسور النفس أسيف البال، ظهرت عليه علامات الضعف البشري وهو يعاتب بمرارة، أو يستعطف بعزَّة وشموخ.

تختصر هذه الرسالة علاقة اثني عشر عامًا تقريبًا قضاها الجاحظ في صحبة ابن الزيات، اقترب منه على ظَنٍّ، وكذا هي البدايات، ثم انتهت علاقتهما على يقين، وكذا هي النهايات.

كان من الطبيعي – والعلاقة هذه – أن تمتلئ صفحات الرسالة بكثير من الاستفهامات، وأنواع من التعجب، وشيء غير قليل من التحضيض، ثم صُوَرٍ متعدِّدة من المحاكاة الساخرة، ومنها جميعًا تكوَّنت مباحث هذه الدراسة.

مقدمة

الحديث عن فَنٍّ أبي عثمان ممتع غاية المتعة؛ لأنه يعلِّم العقل بأسلوب أدبي، ويعلِّم الأدب بأسلوب عقلي. والبحث في بيانه محرِّك للأذهان، ومحفِّز للألباب، وشاحذ للقرائح، فلا يزال المرء في مُتَعٍ متتالية لا يدري أيها أولى بالتَّعجُّب.

وكان عهدي بالجاحظ أنه يمرح (مَرَحَ الطِّرْفِ فِي العِذَارِ المُحَلَّى)، أَلَمْ يقل عنه الشاعر علي الجارم:

والجَاحظُ المَرِحُ اللَّعُو ... بُ يَغُوصُ للدُّرِّ الفَرِيدْ

وكان من شأن ذلك أن دعاني لقراءة رسالته (في الجِدِّ والهَزْلِ)، وظننتُ من عنوانها أنها تسير في الطريق ذاته، وترفرف فيها روح الجاحظ الضاحكة. لكن الأمر بدا على غير ما انصرف إليه الذهن، فما كان العنوان سوى علامة تنطوي على معانٍ كامنة فيها لا تعبِّر عنها تعبيرًا حقيقيًّا، بل ظهر لي أنه نوعٌ من التعبير عن المعنى الغائب الذي يحفظ به الجاحظ شيئًا من أَمَانِهِ أو كرامته.

تأتي هذه الرسالة مخالفة لما شاع عن علاقة الجاحظ بابن الزَّيَّات، فما يكاد يُذكر أحدهما إلا ويصحبه ذِكْرُ الآخر؛ لشدة ما بينهما من لُحْمَة، وقوَّة ما بينهما من رِبَاط. والقراءة العامة في سِيرَتَي الرجلين لا تعطي صورة كاملة عن طبيعة تلك العلاقة.

لذا فإن من أبرز الأهداف التي تقدِّمها هذه الدراسة هو: الكشف عن حقيقة هذه العلاقة، وما كان يشوبها من مُكَدِّرات مما هو معتاد بين رُفَقَاءِ الصنعة، وقد صرَّح هو بذلك عندما قال في رسالته هذه: «مِنْ أَسْبَابِ العَدَاوَاتِ... تَحَاسُدُ الأَشْكَالِ في الصِّنَاعَاتِ»[1]، وقال في موضع آخر: «لَمْ أَعْجَبْ من دَوَامِ ظُلْمِكَ، وثَبَاتِكَ على

(١) رسالة في الجد والهزل (ضمن رسائل الجاحظ): ٢٦٤/١، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

غَضَبِكَ... ونَحْنُ نَنْظُرُ فِي عِلْمٍ وَاحِدٍ، ونَرْجِعُ فِي النِّحْلَةِ إلى مَذْهَبٍ وَاحِدٍ»[٢]. ففي الوقت الذي يرى الجاحظ فيه أنه أعظم كاتب في زمانه، ولا يرى من يدانيه ثقافة واطِّلاعًا، يحاول ابن الزيات أن يزاحمه في هذه المكانة، مستغلًّا سطوته السياسية. ولعل الجاحظ أدرك ذلك مبكِّرًا، لكنه لا يقوى على معاداة الوزير الذي يمتلك صلاحيات مطلقة في عهد المعتصم، إلا أنه كان من الطبيعي أن يصلا إلى نهاية مؤلمة، ومن هنا وُضِعتْ أصول هذه الرسالة.

كانت رسالة (في الجد والهزل) خُلاصة علاقة الجاحظ بابن الزيات، ولعله كتبها في نهاية العلاقة وأواخرها، بل لعل نكبة ابن الزيات لم تتأخر كثيرًا عن زمن هذه الرسالة. والذي أميل إليه أن هذه الرسالة ظلَّتْ مطوية بين الرجلين، ولم يستطع الجاحظ إشهارها إلا بعد مقتل ابن الزيات؛ فإنها لو ظهرت قبل مقتله لكانت إحدى قرائن انفصام عُرى العلاقة بينهما، ولما اقْتِيدَ الجاحظ إلى مجلس ابن أبي دؤادٍ مقيَّدًا بالسلاسل والأغلال.

تندرج هذه الرسالة في جنس فرعي من أجناس الكتابة الرسائلية عند الجاحظ، وهي رسائل المتضادات، أي تلك التي تحمل عنواناتها أزواجًا من الألفاظ القائمة على الطباق: الظهر والبطن، النخل والزرع، المعاش والمعاد، مدح التجار وذم عمل السلطان، وهذه كلها تسير في مدار السياسة القولية للجاحظ، فاستراتيجيته الكتابية تتمحور في عرض الصور المتقابلة داخل الأسلوب البياني المركوز في النظرية الأدبية، من خلال التلاعب بالمعاني المتضادة بهدف تضليل القارئ ومخاتلته مرَّة، والادِّراع بالحذر والتخلُّص من اللَّوْم مرَّة أخرى[٣]، باستغلال الجانب اللَّعِبي في اللغة التي

(٢) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٦٥.

(٣) سيأتي الكلام مبسوطًا في هذا المنحى في أثناء الحديث عن وظيفة (المحاكاة الساخرة) ص٣٦.

تتصف بأنها حمَّالة أوجه، وهو ما يسمِّيه البلاغيون: (فن التوجيه)، فينقلب القارئ لا يدري غاية أبي عثمان! أَيَـمْدَحُ بما يشبه الذَّمَّ، أم يَذُمُّ بما يشبه المدح؟ وهي إحدى طرائق التعبير التي لا يقوى عليها إلا العباقرة، ألم يقل بشارٌ قبله:

خَاطَ لي عَمرٌو كِسَاءً لَيْتَ عَيْنَيْهِ سَوَاءُ

فَسَلِ النَّاسَ جَمِيعًا أَمَدِيحٌ أَمْ هِجَاءُ

ثم ارتأيتُ أن أُخصِّصَ الحديث عن الجوانب التعبيرية فيها، متخذًا المنهج الإنشائي سبيلاً إلى ذلك؛ فقد جمع الجاحظ بين التنويع والتوظيف، فنوَّع في أساليبه التعبيرية بما يخدم أفكاره التي يطرحها، ثم وظَّف كل أسلوب في مكانه الملائم له، فاستفهم آونةً، وتعجَّب آونةً أخرى، وجاء التحضيض رديفًا لذلك، ثم استفرغ طاقته العتابية في المحاكاة الساخرة التي حاول من خلالها أن ينال من خصمه دون أن يكون عليه مأخذ في ذلك.

وبهذا تشكَّلت هذه الدراسة من:

(مقدمة) بَيَّنْتُ فيها سبب اختياري لهذا الموضوع.

و(تمهيد) تحدَّثتُ فيه عن علاقة الجاحظ بابن الزيات، وموضوع الرسالة وسبب تأليفها.

ثم جاءت المباحث من خلال الوظائف التعبيرية الآتية:

-الاستفهام.

-التعجُّب.

-التحضيض.

-المحاكاة الساخرة.

ثم (خاتمة) أُلـخِّص فيها أبرز النتائج.

سائلاً المولى أن يكتب لي العون والسَّداد

تمهيد

١- علاقة الجاحظ بابن الزيَّات(٤).

اتفقت مصادر ترجمة الجاحظ على أن أوَّل اتِّصالٍ له ببلاط الخلافة كان في عهد الخليفة المأمون عام (٢٠٤ه)، عندما احتاج المأمون إلى معرفة الأجدر بالإمامة؛ ليحسم أمر ولاية العهد بين العباسيين والطالبيين، فأشار عليه ثمامة بن أشرس بأن يتولَّى أديبٌ في البصرة يقال له الجاحظ وضع رسالة في ذلك، فكتب الجاحظ رسالته في الإمامة التي أُعْجِبَ بها المأمون أيما إعجاب، فاستدعاه إلى بغداد ووَلّاهُ ديوان الرسائل، لكنه استعفى بعد ثلاثة أيام، وخرج من المشهد الرسمي للدولة بعد أن دخل القصر بصفة ثقافية.كانت هجرته إلى بغداد إيذانًا بدخوله المشهد الثقافي وارتقائه أول عتبات الشهرة، إذ تمكّن من حضور مجالسها ومنتدياتها الأدبية والثقافية، والتنقل بين

---

(٤) لا يتغيَّا هذا البحث ترجمة الجاحظ ولا ابن الزيات، فليسا في حاجة لها، ولا معنى لذلك أصلاً؛ إذ ليست الشخصيتان محلَّ الدراسة، كما أن مصادر ترجمتهما مستفيضة بأخبارهما. لكني سأتناول جانبًا من سيرتهما أراه ضروريًّا لفهم أبعاد المدوَّنة التي يتمحور عليها البحث. مكتفيًا بالمصادر التي احتجتُ الرجوع إليها لفهم هذه العلاقة، مع الإشارة إلى مصادر بعض النصوص التي دَعَتِ الضرورة لذكرها. والمعلومات الواردة في هذا المبحث مستقاة من:

أ) تاريخ الرسل والملوك، الطبري، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، سلسلة ذخائر العرب، دار المعارف، مصر، ط٢، د.ت.

ب) الأغاني، أبوالفرج الأصفهاني، شرحه: سمير جابر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:٢، ١٩٩٢م.

ج) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (معجم الأدباء)، ياقوت الحموي، تحقيق: د.إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

د) وفيات الأعيان، ابن خلكان، تحقيق: د.إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت.

هـ) تاريخ الأدب العربي (العصران العباسيان الأول والثاني)، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط:١١، ١٩٩١م.

و) النثر العربي ببغداد، شارل بيلا، حوليات الجامعة التونسية، العدد: ٢٤، عام: ١٩٨٥م.

مكتباتها، والاحتكاك بشخصياتها العلمية البارزة، ومجالسة أصحاب الملل والنِّحَل التي ظهر آثارها على مؤلفاته. مستفيدًا من الراتب الشهري الذي أجراه له القصر وإن لم يكن موظفًا فيه، حدث هذا كله وقد تجاوز الأربعين من عمره.

أما ابن الزيات فقد أجمعت مصادر ترجمته على أن اتصاله ببيت الخلافة كان بصفة تجارية وفي سِنٍّ مبكِّرة، عن طريق أبيه التاجر الذي اتصل بقصر الخليفة بعد قدوم المأمون من خراسان إلى بغداد سنة (٢٠٤ه)، فكان محمد يعاون أباه الذي تعاقد معه البلاط لعمل «المُشَمَّسِ والفَسَاطِيطِ وآلَةِ الجُمَّازَات»[٥]، ثم ورث صنعة أبيه بعد وفاته، وترقَّى إلى أن أصبح «يَلِي النَّفَقَاتِ وغَيْرَ ذَلك»[٦]، ثم كانت له ولاية «أُمُورِ المَطْبَخِ والفَرْشِ»[٧]. وقد أمضى في هذا التنقُّل خمسة عشر عامًا، كان خلالها يُداخل كُتَّابَ البلاط مستثمرًا ثقافته ومواهبه، إلى أن أدخله الحسن بن سهل في جملتهم، ففاقهم وصار المرجع دونهم، ثم اتصلت علائقه صُدفةً بالمعتصم الذي «اسْتَوْزَرَهُ وحَكَّمَهُ وبَسَطَ يَدَهُ»[٨] بعد حادثة (الكَلأ)[٩].

---

(٥) تاريخ الطبري: ٢٠/٩. وانظر مقدمة ديوان ابن الزيات: ٢٤، شرحه وحققه: جميل سعيد، المجمع الثقافي، أبوظبي، ط٢، ١٩٩١م.

(٦) معجم الأدباء: ١٠٢٠/٣. وانظر مقدمة ديوانه: ص٢٥.

(٧) وفيات الأعيان: ١٠٢/٥. وانظر مقدمة ديوانه: ص٢٥.

(٨) وفيات الأعيان: ٩٥/٥.

(٩) حكى ابن خلكان خبر هذه الحادثة في معرض ترجمة ابن الزيات: «كَانَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ من جُمْلَةِ الكُتَّاب، وَكَانَ أَحْمَدُ ابنُ عَمَّارِ بنِ شَاذِي البَصْرِي وَزِيرَ المُعْتَصِمِ، فَوَرَدَ على المُعْتَصِمِ كِتَابٌ من بَعْضِ العُمَّالِ فَقَرَأَهُ الوَزِيرُ عَلَيْهِ، وَكَانَ فِي الكِتَابِ ذِكْرُ الكَلَإِ، فَقَالَ لَهُ المُعْتَصِمُ: ومَا الكَلَأُ؟ فَقَالَ: لا أَعْلَمُ، وَكَانَ قَلِيلَ المَعْرِفَةِ بالأَدَبِ، فَقَالَ المُعْتَصِمُ: خَلِيفَةٌ أُمِّيٌّ ووَزِيرٌ عَامِّيٌّ؟! - وَكَانَ المُعْتَصِمُ ضَعِيفَ الكِتَابَةِ - ثم قَالَ: أَبْصِرُوا مَنْ بالبَابِ من الكُتَّابِ، فَوَجَدُوا مُحَمَّدَ بنَ عَبْدِ المَلِكِ المَذْكُورَ فَأَدْخَلُوهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: مَا الكَلَأُ؟ فَقَالَ: الكَلَأُ العُشْبُ على الإِطْلاقِ، فَإِنْ كَانَ رَطْبًا فَهْوَ الخَلا، فَإِذَا يَبِسَ فَهْوَ الحَشِيشُ. وشَرَعَ فِي تَقْسِيمِ أَنْوَاعِ النَّبَاتِ، فَعَلِمَ المُعْتَصِمُ فَضْلَهُ»، وفيات الأعيان: ٩٤/٥.

وخلاصة القول من هذا كله أنَّ الرجلين كانا متصلين بقصر الخليفة منذ زمن المأمون، ومن أسباب وطرق مختلفة، لكنهما لم يتعارفا طوال سبعة عشر عامًا؛ ولعل سبب ذلك أن الجاحظ لم تكن له علاقة مباشرة بالقصر طيلة هذه المدة بعد تركه ديوان الرسائل، أما ابن الزيات فلم تكن له صفة علمية، ولم يكن خلالها شيئًا مذكورًا.

لعل أول لقاء بين الرجلين ذاك الذي حكاه الجاحظ نفسُه فيما رواه ابنُ خلِّكان، إذ قال: «أَرَدْتُ الخُرُوجَ إلى مُحمَّدِ بنِ عبدِالملكِ الزَّيَّاتِ وَزِيرِ المعْتَصِمِ، فَفَكَّرْتُ في شَيءٍ أُهْدِيهِ لَهُ، فَلَمْ أَجِدْ شَيْئًا أَشْرَفَ من كِتَابِ سِيبَوَيْهِ، فَلَمَّا وَصَلْتُ إلَيْهِ قُلْتُ لَهُ: لَـمْ أَجِدْ شَيْئًا أُهْدِيهِ لَكَ مِثْلَ هَذَا الكِتَابِ، وقَد اشْتَرَيْتُهُ من مِيرَاثِ الفَرَّاءِ. فَقَالَ: واللهِ مَا أَهْدَيتَ لي شَيْئًا أَحَبَّ إلَيَّ مِنْهُ»[١٠]. ثم ذكر ابنُ خلِّكان في الموضع نفسه رواية أخرى للخبرِ فقال: «ورَأَيْتُ في بَعْضِ التَّوَارِيخِ أَنَّ الجَاحِظَ لَـمَّا وَصَلَ إلى ابنِ الزَّيَّاتِ بكِتَابِ سِيبَوَيْهِ أَعْلَمَهُ بهِ قَبْلَ إحْضَارِهِ، فَقَالَ له ابنُ الزَّيَّاتِ: أَوَظَنَنْتَ أَنَّ خِزَانَتَنَا خَالِيَةٌ من هذا الكِتَابِ؟ فقالَ الجَاحِظُ: مَا ظَنَنْتُ ذلك، ولكِنَّهَا بخَطِّ الفَرَّاءِ، ومُقَابَلَةِ الكِسَائيِّ، وتَهْذِيبِ عَمْرِو بنِ بَحْرٍ الجَاحِظِ - يعني نفسه -، فَقَالَ ابنُ الزَّيَّاتِ: هذه أَجَلُّ نُسْخَةٍ تُوجَدُ وأَعَزُّهَا. فَأَحْضَرَهَا إلَيْهِ، فَسُرَّ بهَا ووَقَعَتْ منه أَجْمَلَ مَوْقِع». ولعل كلمة الجاحظ «أَرَدْتُ الخُرُوجَ» تشير إلى عزمه الخروج من بغداد إلى سامراء بعد أن اكتمل بناؤها على يد ابن الزيات، وانتقلت إليها دار الخلافة عام (٢٢١ه)، إذ يتضح من سياق الخبر وبحث الجاحظ عن هدية ملائمة يقابل بها ابن الزيات أنه أول لقاء بين الرجلين، كما يتضح أن هذا اللقاء حدث بعد أن طار صيت ابن الزيات، وعُرف بين العامة وزيرًا، وبين الخاصة «أَديبًا فَاضِلاً بَليغًا عَالِـمًا بالنَّحْوِ واللُّغَة»[١١]. وبذلك فإن

(١٠) وفيات الأعيان: ٤٦٣/٣.

(١١) وفيات الأعيان: ٩٤/٥.

هذا اللقاء الذي جرى فيه التعارف بينهما لم يحدث إلا عام (٢٢١ه) أو بعده بقليل ؛ بعد أن يكون ابن الزيات قد أمضى مدةً في الوزارة تؤهله لهذا الصيت الذائع ، وبعد أن تولَّى جميع أمور الخليفة العام منها والخاص.

بقي أن أُحاول تحديد عُمْرِ كُلٍّ منهما عندما التقيا ، فإذْ قد انتهينا إلى أنهما لم يلتقيا إلا عام (٢٢١ه)، وكان الجاحظ قد وُلد عام (١٦٠ه)[١٢]، فإن عُمُره عندما التقى ابنَ الزيَّات كان (٦١) عامًا تقريبًا. أما ابن الزيات فإن عمره عندما التقيا كان (٤٨) عامًا ؛ لأنه وُلد عام (١٧٣هـ)، وبذلك فإن الجاحظ أكبر من ابن الزيات بثلاثة عشر عامًا تقريبًا.

استمرَّتْ علاقة الرجلين مدَّة ثنتي عشرة سنة، من عام (٢٢١هـ) إلى عام (٢٣٣هـ) وهو العام الذي قُتل فيه ابن الزَّيَّات ، وهي المدة التي عبَّر عنها الجاحظ في رسالته هذه بقوله : «شَيْبَتي التي بهَا اسْتَعْطَفْتُكَ ، وكَبْرَة سِنِّي التي بهَا اسْتَرْحَمْتُكَ ، اللَّتَانِ لم يَحْدُثَا عَلَيَّ إلا وأنَا في ذَرَاكَ ، ولم يَحُلَّا بي إلا وأنَا في ظِلِّكَ... وهَلْ هَرِمْتُ إلا في طَاعَتِكَ؟»[١٣]، فهي مدة طويلة تقلَّب فيها الجاحظ عُمْرِيًّا من طور إلى طور. وبالرغم من ذلك العتاب الشديد والجفوة المؤلمة التي تظهر في هذه الرسالة ، وأيًّما كانت طبيعة هذه العلاقة بين الرجلين ، وبِغَضِّ النظر عن سبب استمرارها ، فإن هذه العلاقة لم تنقطع ، بل ظل الجاحظ معدودًا من رهط ابن الزيات وجناحه السياسي ضدَّ خصومه ، بدليل هروبه عندما قتل ، بل بلغت علاقتهما قُربًا أن يجعل من نفسه قرينًا

(١٢) على احتساب متوسط الأقوال المتعددة في ذلك، وعلى اعتبار ما ورد من أن عمره خمسة وتسعون عامًا عندما توفي سنة (٢٥٥هـ) اتفاقًا.

(١٣) الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، (ضمن رسائل الجاحظ): ٢٧٢/١.

له، فيقول عندما سُئل عن سبب اختفائه: «خِفْتُ أَنْ أَكُونَ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي التَّنُّورِ»(١٤).

٢- موضوع رسالة (في الجد والهزل)، وسبب تصنيفها.

يصعبُ القول أن الجاحظ كان مخلصًا تمام الإخلاص لابن الزيَّات طوال مدة اتصالهما، وما ذاك لِلُؤْم أبي عمرٍو أو نِفَاقه، بل لأنه عانى خلال مدة اتصاله به وانقطاعه إليه من تقلُّبات ابن الزيات ومزاجيته، وكان من الطبيعي أن تَـمُرَّ علاقتهما بمراحل من الفتور التي تصل إلى درجة المغاضبة، فابنُ الزيات يُدِلُّ بمنصبه ومكانته من الخليفة، والجاحظ يُدِلُّ بأدبه ومكانته العلمية، ولذا جاءت هذه الرسالة معبِّرةً عن جانبٍ خَفِيٍّ من هذه العلاقة، ربما لم يدركه المقرَّبون من الرَّجلين. أليس بلغ به الضرر أنه قال له: «لَيْسَ هذا بأَوَّلِ شَرَكٍ نَصَبْتَهُ، ولا أَوَّلَ كَيْدٍ أَرَغْتَهُ، ولا هِيَ بأَوَّلِ زُبْيَةٍ غَطَّيْتَهَا وسَتَرْتَهَا، وحِيلَةٍ أَكْمَنْتَهَا ورَبَصْتَهَا»(١٥)! ثم قال بعد أن أخبره أنه يدرك مكايداته: «يَا لَهَا مَكِيدَةً مَا أَبْعَدَ غَوْرَهَا، ويَا لَهَا حُفْرَةً ما أَبْعَدَ قَعْرَهَا»(١٦). وقد دفعه هذا إلى مراجعة كثيرٍ من تصرفاته معه، وإعادة تفسيرها وفاق ما تبيَّن له بعد هذه الصحبة الطويلة.

توحي الرسالة بأنها كانت نفثة مصدورٍ، فقد باح الجاحظ بمكنون فؤاده تجاه ابن الزيات، وأَخَذَهُ بالآخرة والأولى، وتكلَّم بكل ما يعتلج في قلبه، مستخدمًا براعته، وممسكًا بزمام نفسه، ومحتفظًا بهدوئه المعتاد. عاتبه كثيرًا، وعدَّد أخطاءه عليه، وأخبره أنه اكتشف ألاعيبه، وقارب ووَارَبَ، وأغلظ وأَلانَ، وهدَّد واستعطف، وعَبَسَ وبَسَمَ، ونَصَحَ وشَرَح، وكان يستعرض ثقافته، وكأنه يريد أن يزيد غيظ

(١٤) معجم الأدباء: ٢١٠٢/٥.

(١٥) الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ٢٤١.

(١٦) الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ٢٥٦.

الرجل في المجال الذي حسده عليه وعاداه من أجله، فما يكاد يجد فرصة يستطرد من خلالها، ولا منفذًا يتسرَّب منه قلمه إلا جعله لدغة ينتقم بها من الرجل الذي أساء إليه.

دارت أفكار الرسالة في فلك واسع، جمع فيها الجاحظ أخلاطًا من همومه مع ابن الزيَّات، وبثَّ فيها خلاصة تجربته مع الرجل، استعرض فيها سلبياته ومساوِءَه، وطبائع السوء التي جُبِل عليها، وكأنها كانت رسالة مُوَدِّعٍ من صديق مخدوع، أراد أن يُكابر ويتعاظم على آلامه وجراح إخلاصه، فيزعم أنه كان يدرك الحقائق منذ البداية، لكن الألم والمرارة التي تُطِلُّ من بين كلماته كانت تشي بغير ذلك، كان الجاحظ صديقًا مخلصًا، لكن الصدمات التي تعرَّض لها من ابن الزيات حوَّلته إلى صورة أخرى تمامًا، ولعل أشد ما آلمه أنه اكتشف أن صديقه الذي أخلص له طوال اثني عشر عامًا كان حاسدًا له، وكان يطوي له ويمكر به. لذا كانت أفكاره حائمة حول هذه الموارد، وأبرزها:

أ) إخبار الخصم بأن الجاحظ مطّلع على حقائق الأمور وبواطنها.

ب) إنكار المعرفة بالسبب الحقيقي لهذا الجفاء الذي ما زال يتعاظم حتى بلغ مرتبة العداوة؛ إلى درجة أنه صار يفسِّر ذلك الجفاء على أنه ملالة الصديق القديم، والبحث عن صديق جديد؛ لحشر ابن الزيَّات وإلجائه إلى سبب واحد هو: الحسد.

ج) عدم قدرة ابن الزيات على المواءمة بين الذنب والعقوبة.

د) سوء اختيار ابن الزيات، عندما اختار عداوة الجاحظ على صداقته، مع أن الجاحظ كان صادقًا في شعوره تجاهه، إلى جانب مزاياه الأدبية العالية.

هـ) وضع لابن الزيات صورتين لا ثالثة لهما، فهو إما رجل سيِّء التدبير أحمق نزق، أو هو حاسد حاقد ينفس عليه مكانته في صنعته وعلو كعبه في فنّه.

و) معايرة ابن الزيات بكثير من سلبياته التي تبيّنت له من طول صحبته له، كالتخبط في السياسة، والإسراف في الرضا والغضب، وحسد المتميزين، وطبيعة نشأته المدللة التي أدَّت به إلى هجران الدرس وترك القراءة، وما يجر ذلك من طباع سوء.

ز) عقد جلسات تعليمية لابن الزيات، يعلمه فيه كيف يفرِّق بين خطيئة العدو وهفوة الصديق، ومدح المُحِبِّ ومدح المتزلِّف، وعلامات الودِّ الحقيقي والود المزيَّف، والفرق بين الأناة والتريُّث. بل يعلِّمه الأخلاق التي يجب أن يتصف بها الكبار والسادة من صفح وتجاهل وحلم واحتمال في سبيل استبقاء العلاقات الاجتماعية.

ح) تحدَّث عن أسباب المعاداة بين الناس، كالحسد ومساوئه وتبعاته على نفس الحاسد، وخَصَّ الغضب وأضراره ومفاسده بأحاديث كثيرة مبثوثة في مواضع متفرقة، وتأثير الشيطان على الغاضب.

ط) استطرد للحديث عن العلاقات الاجتماعية، كعلاقة الإنسان بأبنائه، وأبناء عمومته، وعموم قرابته.

ي) عدد بعض الإهانات التي تلقَّاها من ابن الزيات، كالسخرية منه في تجميع كراريس كتبه، وانقطاع نسله.

ك) أظهر معرفة واسعة ودراية عميقة بحرفة النسخ وأعمال النُّسَّاخ، بدت في معرفته بأنواع الورق، وفرق ما بينه وبين الجلود، وأنواع الأحبار، وحيل النُّسَّاخ.

ل) الحديث عن بعض القضايا الأدبية، كالحديث عن اللفظ والمعنى، ونظرية النظم،

م) العتاب الذي يأتي ختامًا لكثير من الفقرات، والتي يجمع فيها الجاحظ بين الاستعطاف والأنفة، يخاف سطوة الرجل وجبروته، لكنه لا يريد أن يظهر أمامه ضعيفًا باكيًا.

ن) استعراض الثقافة الأفقية التي يتميز بها الجاحظ، وممارسة الإذلال المعرفي، وإظهار ابن الزيات صغيرًا إلى جانبه.

الوظائف التعبيرية

لا يقتصر التعبير على الملافيظ، وبالتالي فلا يمكن حصرها على الطرائق اللسانية وحدها، بل إن كل ما عبَّر عن معنى معيَّن فقد أدَّى وظيفته التعبيرية، سواء كانت لسانية، أو إشارية، أو صوتية، أو حالية.

فإذا استقر في الأذهان طبيعة التعبير، استطعنا أن نذهب إلى أبعد من ذلك لنتعرَّف على الوظيفة التي يؤديها. فكما أننا نتحدث لنُخبِر، فإننا نتحدَّث لنعبِّر عن ذاتنا، وتمنحنا اللغة - بما تحتويه من فلسفة شمولية - أساليب متعددة في طرائق التعبير، يمكن من خلالها أداء الشعور الذاتي للمُعبِّر، وبهذا تتكوَّن العلاقة التي تدل على الناطق في ثنايا المنطوق(١٧).

ويتنوَّع هذا التعبير بحسب ماهيّة المعبِّر ذاته، فيستطيع أهل البيان الكلامي أن يتعاملوا مع ما تتيحه اللغة من وظائف تعبيرية يمكنها أن تُفصِح عن مكنونات أنفسهم، من خلال استثمار ما يمكن تسميته ثيمات لغوية تحمل رسائل يوجهها المرسل، توصل أفكارًا ومعاني مقتضبة، وتنطوي على الكثير من المسكوت عنه، المخبوء في ثنايا هذه الرسائل التواصلية.

---

(١٧) انظر: رومان ياكبسون، وظائف اللغة، ضمن كتاب: اللغة، ص: ٦٤. ضمن سلسلة: دفاتر فلسفية، نصوص مختارة، إعداد وترجمة: محمد سبيلا وعبدالسلام بنعبدالعالي، دار توبقال، الدار البيضاء، ط: ٥، ٢٠١٠م.

وتتبدَّى إحدى قدرات الجاحظ البيانية من خلال مهارته في توظيف الأساليب اللغوية المختلفة فيما يغذِّي مقاصده، ويبثّ فيها الحركة التعبيرية الدائمة، من خلال الآتي:

١- الاستفهام.

يمثِّل الاستفهام أحد الأساليب الأساسية التي تصاغ فيها المحاورات بين الكُتَّاب. ويُستخدم في معانيه الأصلية التي تدل على الاستخبار الحقيقي، وفي سياقات لا تفيد المعنى الأصلي(١٨). وأسلوب الاستفهام هو الإطار الإنشائي العامُّ المؤدي للوظيفة التعبيرية؛ لأن المتلفظ ببعض صُوَره لا يطلب الإجابة الحقيقية، بل يثير حفيظة المخاطب بالقيمة التعبيرية التي يتضمنها الاستفهام.

ويُشكِّل الاستفهام أحد المحاور الرئيسية التي دارت عليها الرسالة، واستطاع الجاحظ أن يوظِّف ذكاءه في استعمال هذا النوع من أدوات التواصل، وأن يُخضعه لقدراته البيانية، وأن يتصرَّف فيه وفاق الأهداف التي يرمي إليها؛ ليتوصَّل من خلاله إلى الغايات المطوية في نفسه.

جاءت استفهاماته على شِقَّيْن: حقيقي، بمعنى أن يستفهم عن شيء مجهول عنه لا يعرفه فعلاً. وغير حقيقي، بمعنى أن يجعل استفهامه في سياق التقريع أو في سياق الإنكار، فيجعل منه وسيلة لعتاب خصمه، أو تبكيته، أو الانتقام منه، وذلك بعد أن يعرِّي هذا الخصم أمام نفسه، ويكشف حقيقته وألاعيبه، ويخبره أن ذلك كله غير خافٍ عليه، ولا مخبوء عنه.

---

(١٨) انظر: صالح بن رمضان، الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم، دار الفارابي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٧م، ص٥٨٠.

ولعل أبرز الاستفهامات الحقيقية تساؤله عن سبب تغيُّر ابن الزيات عليه وغضبه منه وجفوته إياه، فقد استغرب الجاحظ هذه المعاملة من ابن الزيات، وهو نديمه وصَفِيُّه، وعندما تأمَّلَ علاقته بابن الزيات وحاول أن يتذكَّر أعمالاً يمكن أن تكون قد أغضبت الرجل منه،لم يجد إلا احتمالات ثلاثة: إهداء (كتاب الزرع والنخل) لإبراهيم بن العباس الصولي، وهو عَدوٌّ لابن الزيات، وعدم تأدية الجاحظ للخراج، وإنما يكتفي بالزكاة، وعدم دفعه الضرائب؛ لأنه يراها من قبيل الجزية. لكنه بدا غير مقتنعٍ بهذه الأسباب كلها؛ ولم يُخْفِ ذلك عن ابن الزيات، بل أخبره منذ بداية الخطاب أنها أسبابٌ لا تقوم لمثل هذا الجفاء «ليس من أجل...، ولا على ميل...، ولا لبغضي دفع...»[١٩]، وهو هنا يستخدم أسلوبًا حجاجيًّا عاليًا، إذ بدأ بنفي جُملةٍ من الأسباب التي يمكن أن تفسد العلاقة بينهما، وهي الحجج التي يمكن أن يلجأ إليها خصمه، فعلى أنه أوردها في سياق النفي، إلا أنها كانت تحمل في طيَّاتها استفهامًا غائبًا عن الظهور مسكوتًا عنه في هذه المرحلة من الحوار، وآثر أن يبدأ بالنفي، جاعلاً من الاستفهام الذي سيتلوه أُفُقَ انتظارٍ لتطلُّعات المتلقِّين، بما فيهم ابن الزيات نفسه، الذي بات مترقِّبًا ما سيثبتُه الجاحظ بعد سلاسل النفي التي قدَّمها. وهي لا شكَّ حربٌ نفسيَّة ضد خصمه، فقد ظل يحاصره ويغلق عليه منافذ التَّنصُّل كلها، محاولاً قطع كل حُجَّة يمكن أن يتوارى خلفها ابن الزيات ليسيء إليه، مُلْمِحًا له أن هذه العلل لا يمكن أن تنطلي على شيخ جمع بين الثقافة الواسعة، والعمر المديد؛ ولذا فمن غير المستغرب أن تأتي الفقرة التالية لها: «لَسْتُ أَدْرِي لِمَ كَرِهْتَ قُرْبِي وهَوِيتَ بُعْدِي، واسْتَثْقَلْتَ رُوحي ونَفْسي، واسْتَطَلْتَ عُمْري وأَيَّامَ مُقَامي. ولِمَ سَرَّتْكَ سَيِّئَتي ومُصيبتي، وسَاءَتْكَ حَسَنَتي وسَلامَتي، حَتَّى سَاءَكَ تَجَمُّلي بِقَدْرِ مَا سَرَّكَ جَزَعي

(١٩) الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص٢٣١.

وتَضَجُّري، وحَتَّى تَمَنَّيْتَ أَنْ أُخْطِئَ عَلَيْكَ فَتَجْعَلَ خَطَئي حُجَّةً لَكَ في إبْعَادِي، وكَرِهْتَ صَوَابي فِيكَ خَوْفًا من أَنْ تَجْعَلَهُ ذَرِيعَةً لكَ إلى تَقْريبي»[٢٠] استفهامًا صريحًا في لفظه ومعناه، وبذلك يظلُّ الجاحظ حائرًا يبحث عن السبب الحقيقي لهذا الجفاء الذي يتطور أحيانًا إلى أن يكون ضربًا من ضروب المعاداة، وتمثِّل الإجابة عنه أفق انتظار للجاحظ من خصمه، ظل يتطلع إليه بلهفة واصطبار.

ثم مضى الجاحظ يُعدِّد على ابن الزيات أخطاءه تجاهه، ويحصي عليه الأضرار التي لحقت به بسبب سوء معاملته له، بعد أن اكتشف سوء نيَّته وخبث طويَّته، وراح يعيد تفسير تصرفاته معه بعد أن كان يحملها على الظن الحسن. ومهما تكن أسباب هذه العداوة، فإنه يظل حائرًا في وَاقِعِهِ الذي لا يدري ما يصنع به، أيظل في كنف الرجل وهو عدوٌّ في ثياب صديق ؟ أم يتركه ويرحل عنه ؟ ويظل الخياران كمن يستجير من الرمضاء بالنار، وهو يحكيه بمرارة عندما وجَّه الخطاب لابن الزيات: «إنِ احْتَرَسْتُ مِنْكَ أَلْفَيْتُ لِنَفْسي كَدًّا شَدِيدًا، وغَمًّا طَوِيلاً، وطَالَ اغْتِرَابي وافْتِرَاقُ أُلَّافي، وتَعَرَّضْتُ للعَدُوِّ، وتَحَرَّشْتُ بالسِّبَاعِ. فَإنِ اسْتَرْسَلْتُ إلَيْكَ لَمْ تَرَ أَنْ تَقْتُلَني إلَّا شَرَّ قِتْلَةٍ وآلَمَهَا، ولَمْ تُعَذِّبْني إلَّا بأَشَدِّ النِّقَمِ وأَطْوَلِهَا. ولَوْ أَرَدْتَ ذَبْحي لاخْتَرْتَ الكَلِيلَ على المُرْهَفِ والتَّطْوِيلَ على التَّذْفِيفِ»[٢١]. وهو يحمل في طيَّاته استفهامًا حقيقيًّا من رجل لا يدري ما يفعل، إن استمر في تعامله معه فسيؤول الأمر إلى قتله لا محاله، وإن هجره فلن يستقيم له أمر وقد عرف الناس أنه من حاشيته. ويبدو الأمر كما لو كان تحزُّباتٍ علمية وفكرية في الظاهر، لكنها في الباطن تيارات سياسية تتصارع فيما بينها، ويخشى الجاحظ أن يخرج من حزب ابن الزيات الذي هو محسوب منه، ويستقلَّ محايدًا، فلا يجد

(٢٠) السابق: الجزء والصفحة نفسهما.

(٢١) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٥١.

لنفسه معاشًا ولا بقاءً في مثل هذه البيئة التي لا مكان فيها للحياد ولا الاستقلالية، فإما أن يكون في ظِلِّ حزبٍ متحالفٍ فيما بينه، فيكتسب منه القوَّة والحماية، أو يكون لقمة سائغة لكل قوي في أي حزب؛ ولذا فهو يخاف على نفسه الكَدَّ الشديد والغَمَّ الطويل وطول الغربة وتفرُّق الأُلّاف جرَّاء التفرُّد، بل يغري الأعداء - الذين هم كالسباع الضارية - بنفسه عندما يؤول به الأمر إلى التَّوَحُّد.

وتكاد تكون الإجابة عن هذين الاستفهامين هي الأمر الوحيد الخافي - حقيقة - على الجاحظ في رسالته هذه، بينما تأتي بقية الاستفهامات لتؤدي أدوارًا أخرى، فقد سلك فيها طريق المناورة والتغافل، فجاءت على سبيل الإنكار تارة، وعلى سبيل التقريع تارة أخرى؛ ذاك أن شخصية ابن الزيات لم تكن خافية على الجاحظ، وأن رجلاً بمثل ثقافة أبي عثمان وقدرته على النفاذ إلى طبائع النفوس قادر على فهم التصرفات التي يمكن أن تحدثها الشخصيات بمختلف أشكالها وأطوارها، كما أن طول ملازمته له، واختصاصه به مكّنه من معرفة مقاصده في تصرفاته، لكنه كان يحمل ابن الزيات على حسن الظن، وكان يستبعد سوء غاياته. فلما كثرت تجاوزاته، ولم يَعُدْ لحسن الظن موضع، إذ به يعيد تفسير تصرفاته، ويُظهر النتائج بجلاءٍ لابن الزيات؛ ليبيِّن له أن شخصيته غدت واضحة ومكشوفة أمامه تمام الوضوح. وهو لـمَّا قرَّر أن يكتب هذه الرسالة إنما كان هدفه أن يبلِّغ ابن الزيات أنه استطاع أن يكشف القناع عن ذلك الرمز المزيَّف.

سياق التقريع:

«يمكن أن نَعُدَّ هذا النوع من الاستفهام أشد الأنواع ارتباطًا بالسياق الحجاجي، فهو يقوم على مبدأ المحاسبة، محاسبة المخاطَب على أفعاله»[٢٢].

(٢٢) صالح بن رمضان، الرسائل الأدبية: ص٥٨٢.

وقد استخدم الجاحظ في استفهامه التقريعي طريقين مختلفين، إذ كان تلفُّظُه في الموضع الأول ذا لهجة حادَّة متوتِّرة، مصحوبًا بالتوجُّع والألم؛ لأنه أدرك أن ابن الزيات بالغ في المكر به، إلى درجة أنه لم يتورَّع عن محاربته في صغائر أموره ودقائقها. فقد بلغ به الحسد أنه لم يكتف بمحاولة قطع الجاحظ عن القراءة التي هي مصدر ثقافته، أو احتمال العذاب في سبيل هذه الثقافة، مما جعل الكاتب يقف حائرًا من هذه التصرفات: «فَحَيَّرْتَني بَيْنَ العَمَى والجَهْلِ، ومَا فيهِمَا حَظٌّ لِـمُخْتَار»[٢٣]، بل ذهب ابن الزيات إلى أبعد من ذلك، وهو أنه أراد أن يورث الجاحظ داء الحَصَر، وهو سجن البول في الجسد، ويأتي ذلك من سخونة بدن الجاحظ - وقد كبرت سِنُّه - بسبب تقريب المصباح منه للقراءة، ولم يغفل الجاحظ عن هذا، فقد مضى يحلِّل كيف سيؤول الأمر به شيئًا فشيئًا، وكيف سيتحول احتباس البول إلى حصى في المثانة، ويصير إلى تلف النفس أو غاية التعذيب، وهي الغاية التي لا يريد ابن الزيات سواها: «وقُلْتَ: فإن ابْتُليتُ بطُولِ عُمُرِهِ أَقَامَ فينَا مَشْغُولاً بِنَفْسِهِ، وإنْ ذَهَبَ عَنَّا كَفَانَا مَؤُونَةَ الحِيلَةِ في أَمْرِه»[٢٤].

لذا، فإن الأمر يبدو طبيعيًّا عندما تتفجر نفس الجاحظ بمثل استفهاماته هذه: «مَا هذا الاسْتِقْصَاءُ؟ وما هذا البَلاءُ؟ وما هذا التَّتَبُّعُ لغَوَامِضِ الـمَسْأَلَةِ، والتَّعَرُّضُ لدَقَائِقِ الـمَكْرُوه؟ وما هذا التَّغَلْغُلُ في كُلِّ شَيْءٍ يُخْمِلُ ذِكْرِي؟ وما هذا التَّرَقِّي إلى كُلِّ ما يَحُطُّ من قَدْري؟»[٢٥]. وتبرز القيم التعبيرية النفسية في هذا الخطاب من خلال توسيع بنية الجملة من المركَّب البسيط (ما هذا الاستقصاء) إلى المركَّب المعقَّد ذي الوظائف

(٢٣) الجاحظ، في الجد والهزل: ص٢٥٢.

(٢٤) الجاحظ، في الجد والهزل: ص٢٥٢.

(٢٥) الجاحظ، السابق، الصفحة نفسها.

النحوية المتعددة (ما هذا التَّرَقِّي إلى كُلِّ ما يَحُطُّ من قَدْري؟)، فهذه البنية تحاكي في تصاعدها النَّفَسَ الغَضَبيَّ عند المُتَلَفِّظ.

لكن الجاحظ يعود فيدرك أنه يتعامل مع ابن الزيات، فيخاف سطوته، ويخفف من حِدَّتِه في خطابه، وتجيء استفهاماته بَعْدُ ذات نبرة هادئة، مع ما يشعر به القارئ من كثافة في المعنى وفي الإحساس الداخلي للرجل، فقد كان يتلظَّى غضبًا ويتميَّز غيظًا على هذا الرجل الذي يعرِّضه لأنواع المهالك، لكنه يحاول أن يضبط هذا الغضب لئلا تكون حياته ثمنًا لثورة غير محسوبة النتائج مع خصم معروف بالبطش والجبروت.

ويتجلّى هذا الخطاب الهادئ في تساؤل الجاحظ عن سبب إغراء ابن الزيات وتزيينه له الكتابة على الجلود، «قُلْ لي: لِمَ زَيَّنْتَ النَّسْخَ في الجُلُودِ، ولِمَ حَثَثْتَني على الأَدَمِ...»[٢٦]، فالجاحظ لا يستفهم عن هدف ابن الزيات من هذا الحَثِّ؛ لأنه يعلم أن ابن الزيات كان يعرف سلبيات الجلود والآثار السيئة للكتابة عليها: «وأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الجُلُودَ جَافِيَةُ الحَجْمِ»[٢٧]. فالهدف إذن هو الإضرار بالجاحظ وبكُتُبه، فابن الزيات لم يكن مخلصًا فيما يظهره من نُصْح، وأنَّ ما ظاهره نصيحة إنما هو في حقيقته فَخٌّ يُرَادُ منه إضاعة علمه المنثور في كراريسه المكتوب على الورق، والإضرار بصحته. وتبدو الصورة جليَّةً إذا استصحبنا أن ابن الزيات كان يلوم الجاحظ على «تَرْكِ دَفَاتِرِ عِلْمِهِ مُتَفَرِّقَةً مَبْثُوثَةً، وكَرَارِيسِ دَرْسِهِ غَيْرِ مَجْمُوعَةٍ ولا مَنْظُومَةٍ»[٢٨]، وينتقده بذلك في مجلسٍ عامٍّ كان الجاحظ يحضر فيه «سَمِعْتُكَ وأَنْتَ تُريدُني وكَأَنَّكَ تُرِيدُ غَيْري...»[٢٩]، ويتهمه بالفوضوية العلمية، ويزيِّن له أن يجمع شتات تأليفه في كتابٍ

(٢٦) الجاحظ، في الجد والهزل: ص٢٥٢.

(٢٧) السابق، الصفحة نفسها.

(٢٨) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٤٦.

(٢٩) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٤٦.

كيلا يتفرّق، وأن يتّخذ هذه الكتب من أَدَم. وبذلك يتورَّط الجاحظ في سلبيات الكتابة على الجلود، فهي: جافية الحجم، ثقيلة الوزن، إن أصابها الماء بطلت، وإن كان يوم لَثَقٍ استرخت، يكره أصحابها نزول المطر، تسترسل وتتمدد في يوم الرطوبة، ثم لا تعود إلى وضعها إلا مع تقبُّض شديد، منتنة الريح، باهضة الثمن، يسهل الغش في أنواعها، أكثر عُقدًا وعُجرًا، أكثر خباطًا وأسقاطًا، الصُّفرة إليها أسرع، وسرعة انسحاق الخط فيها أعمّ، ثقيلة الحمل في السفر(٣٠).

سياق الإنكار:

ولهذا النوع دلالة قوية على النزعة الحوارية، عندما يكون شكلاً من أشكال الاحتجاج على المخاطب غير المتمسك بقِيَم الصداقة(٣١).

وقد استخدم الجاحظ ذكاءه في بناء هذا النوع من الاستفهام، فجعله موازنة بين ما يفعله ابن الزيات، وهو الذي يدَّعي صداقة الجاحظ، وبين أفعال الأعداء الحقيقيين الذين يجاهرون بعداوتهم، ويجعل من هذه الموازنة حُجَّة على خصمه، إذ لا يوجد فرق بين أفعال الفريقين. وبصورة أخرى فإنه يعقد موازنة بين أفعال ابن الزيات وادِّعاءاته، أو بين ظاهره وباطنه، وتأتي نتائج المقارنة صادمة للجاحظ نفسه، فيخاطب ابن الزيات بقوله: «فَأَيُّ شَيْءٍ بَقَّيْتَ للعَدُوِّ المُكَاشِفِ، والمُنَافِقِ المُلاطِفِ»(٣٢).

وقل مثل ذلك في موضع آخر، عندما ترى الجاحظ يحاول وضع ابن الزيات أمام نهايته المحتومة التي يرسمها بتصرفاته، والتي ستفضي إلى فراغ مجلسه من العلماء، وكأن الجاحظ يجعل من نفسه الركن الأساس في هذا المجلس؛ استعلاء بنفسه، أو ثقة

(٣٠) انظر: الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٥٢.

(٣١) انظر: صالح بن رمضان، الرسائل الأدبية: ص٥٨٤.

(٣٢) الجاحظ، في الجد والهزل: ص٢٣٢.

بموقف العلماء والأدباء منه، إذ إنهم سيرحلون عن مجلس ابن الزيات برحيله هو عنه، وبذلك فلن يبقى لابن الزيات أحدٌ إذا فارقه الجاحظ، لن يبقى إلا أولئك الذين لا حظَّ لهم في العلم ولا أثر لهم فيه، ولذا فلا غرابة عندما يجيء آخر استفهام في رسالة الجاحظ مفعمًا باليأس والإحباط: «فَلَمْ تَدَعْ غَايَةً في صَرْفِ مَا بَيْنَ طَبَقَاتِ التَّعْذِيبِ إلا أَتَيْتَ عَلَيْهَا، ولا فُضُولَ مَا بَيْنَ قَوَاصِمِ الظَّهْرِ إلا بَلَغْتَهَا. فَقَدْ مِتُّ الآنَ، فَمَعَ مَنْ تَعِيشُ؟ بَلْ لَقَدْ قَتَلْتَني، فَمَنِ الآنَ تُعَاشِرُ؟... قَدْ قَتَلْتَني فَمَعَ مَنْ تَعِيشُ؟ أَمَعَ الشِّطْرَنْجِيِّينَ؟»[٣٣]. وانظر هذا الإلحاح في الاستفهام عن نوعيَّة العِوَض في المعايشة، وتكراره ثلاث مرات، ثم إبراز مقترح البديل في صورة مستهجنة تدل على الخسارة الفادحة عندما يكون الشطر نجيون العابثون بديلاً للأديب العالم.

ومن خلال استفهامات الجاحظ نلاحظ حجم الصدمة التي صُدِمَها من ابن الزيات، فكأنه فوجئ بدخيلة نفسه عليه، فلم يكن يتوقع أنه عدو في ثياب صديق، وأنه ينفِس عليه أدبه، ويحسده على مواهبه، بل إن حسرته تشتد لأنه لم يحرمه نفع هذه المواهب، فقد كان مخلصًا له مطيعًا فيما يأمره به، بل كان من خاصَّته، إلى الدرجة التي خاف فيها على نفسه يوم أن قُبض على ابن الزيات، وقال جملته المشهورة: (خفتُ أن أكون ثاني اثنين إذ هما في التنور).

٢- التعجب.

هو أحد الصِّيَغ الكبرى التي تخدم الوظيفة التعبيرية في التواصل اللساني، وكَثْرَةُ ورود صيغ التعجب في الرسالة إشعارٌ بحجم الدهشة التي كانت متغلغلة في نفس الجاحظ، فقد بدا الرجل مذهولاً مبهوتًا لا يدري كيف يعالج تلك الكارثة التي حلَّت

(٣٣) الجاحظ، في الجد والهزل: ص٢٥٨.

به؛ إذ هو مطعونٌ من قِبَلِ مَنْ ظنَّه صديقًا رفيقًا ونديمًا شفيقًا، ولم يَدْرِ أن الرجل يطوي له وراء تلك الابتسامات غِلًّا أسود، وينتظر الفرصة للإيقاع به.

دارت وظيفة التعجب في رسالة الجاحظ حول أفكار معينة، ظل يردِّد بعضها ويكرِّره غير مرة في حيرة وذهول، ولعل ذلك بسبب الصدمة التي صُدِمها من ابن الزيات. وقد مزج في أفكاره في هذا المبحث بين التعجب والاستفهام، مما يصح تسميته استفهامًا تعجُّبيًّا، لكنني جعلته في مبحث التعجُّب، لأنه هو الغاية المرادة، وما كان الاستفهام إلا عتبة للوصول إليها.

وأوَّل فكرةٍ تعجَّب منها الجاحظ: عجز ابن الزيات عن تفصيل العقوبة على قدر الذنب، وعدم القدرة على التحكم في ميزان العدل الذي يفترض بالسياسي أن يتقن التعامل معه وفاق أعلى درجات الدقة والكمال.

وحتى يجعل ابنَ الزيات في موقف المخطئ المقصِّر، فإنه يقارن بين كفتي الميزان، ففي إحداهما ما يُحتَمل أنه سبب غضب ابن الزيات تأليف (كتاب الزرع والنخل)، وفي الأخرى هذه الجفوة الغريبة التي وجدها منه، إلى الحدِّ الذي جعل ابن الزيات يكره قربه ويهوى بعده.

وإذا استحضرنا أن الجاحظ نفى في أول فقرة في رسالته أن يكون هذا هو السبب الحقيقي؛ لحقارته؛ وأَنَفَةِ الكرام من الوقوف عند هذه الصغائر، إذا كان ذلك ماثلاً في الذهن، فمن الطبيعي أن تنتهي المقارنة إلى «إنْ كَانَ ذَلكَ هو الذي أَغْضَبَكَ، وكَانَ هو السَّبَبَ لـمَوْجِدَتِكَ، فَلَيْسَ - جُعِلْتُ فِدَاكَ - هذا الحِقْدُ في طَبَقَةِ هذا الذَّنْبِ، ولا هذه الـمُطَالَبَةُ من شَكْلِ هذه الجَرِيمَةِ»[٣٤].

(٣٤) الجاحظ، في الجد والهزل: ص٢٣١.

وبعد أن انتهى الجاحظ من هذا المنحى من القضية، وأحسَّ أنه تفوَّق على خصمه فيه، راح يتعمَّق في هدوء، ويتمعَّن في إيجاع، فجعل الفرق بين الذنب والعقوبة شاسعًا، والمساحة بينهما جدَّاء مهيع، فلا هما متقاربتان، بله أن تكونا متوازنتين، «ولَوْ كَانَ إِذْ لم يَكُنْ في وَزْنِهِ وَقَعَ قَريبًا، وإِذْ لم يَكُنْ عِدْلَهُ وَقَعَ مُشْبِهًا، كَانَ أَهْوَنَ في مَوْضِعِ الضَّرَرِ، وأَسْهَلَ في مَخْرَجِ السَّمَاعِ»[٣٥]. وهو بذلك يوغل في إيلام خصمه، ذلك السياسي الذي لا يحسن تقدير الأمور، فأيُّ نفعٍ يرتجى منه. وهذا أول سهم ينتصر الجاحظ به لنفسه.

وعندما يستعرض الجاحظ موضوع الخلاف بينه وبين ابن الزيات، ويجد أن الأمر لم يكن مستحقًا هذا الغضب كله، ولا قريبًا منه، يقوده ذلك إلى التعجب من كون هذا الموضوع الحقير سببًا لهدم علاقة إنسانية متينة، ارتقت من كونها صداقة زمنية، إلى مرتبة الأخوَّة بين اثنين، «وبَعْدُ، متى صَارَ اخْتِيَارُ النَّخْلِ على الزَّرْعِ يُحْقِدُ الإِخْوَانَ، ومتى صَارَ تَفْضِيلُ الحَبِّ وتَقْرِيظُ الثَّمَرِ يُورِثُ الهِجْرَانَ...»[٣٦]. وهو إن كان نفى سابقًا أن يكون سبب العداوة هو إهداء كتابه (الزرع والنخل) لإبراهيم الصولي عدو ابن الزيات، فإنه يصرف عجبه هنا إلى شيء آخر، وهو أن موضوع الكتاب المُهْدَى لا يستحق هذه الجفوة. وبهذا فهو يخرج نفسه من دائرة اللوم مرة أخرى ما دام أن الكتاب لا يستحق الجفوة، لا إهداءً ولا موضوعًا.

وأنت ترى أن الجاحظ لا يزال يعتمد أسلوب الموازنة بين حجم غضب ابن الزيات، وبين السبب الذي أدَّى إلى هذا الغضب، وهو إن لم يُرِدْ - حتى الآن -

(٣٥) الجاحظ، في الجد والهزل: ص٢٣٢.

(٣٦) الجاحظ، في الجد والهزل: ص٢٤٠.

أن يبيِّن لابن الزيات أنه يكشف حقيقته ويدرك غاياته، فهو على أقل تقدير يحاول أن يتخذ دور المستبطن النفسي، فيكشف له أخلاقه التي ربما تكون خافية عنه نفسه.

ومما يدل على عبقرية الجاحظ وبُعْدِ غوره، أنه يسوق هذا التعجب بعد أن تحدَّث عن المودَّة، وأطنب في تبيان دلائلها، وبيَّن كيفية التعامل مع هفوات صاحبها، وكأنه يشير بذلك إلى نفسه، ويوضِّح لابن الزيات الطريقة المثلى التي يفترض أن يتعامل معه بها، وفي هذا تأكيد لتعجُّبه في الفكرة السابقة.

وجعل حديثه عن علائق المتوادِّين مقدمة لتعجُّب جديد، فراح يحاصر خصمه، ويغلق عليه منافد العذر، إلى أن صرَّح له بالنهاية التي كان يسعى إليها في خطابه معه، فجعل غضبه العارم بسبب تأليف كتاب (الزرع والنخل) ضربًا من الحماقة، مشابهًا حماقات العرب في الجاهلية، إذ كانت تدور بينهم الحروب سنين ذات عدد بسبب ضرع ناقة، أو سباق خيل، أو مخرف تمر، فجاءت عباراته قوية صارمة، مزج فيها تعجُّبه من تصرفات ابن الزيات بالسخرية منه: «وقد كُنَّا نَعْجَبُ من حَرْبِ البَسُوسِ في ضَرْعِ نَابٍ، ومن حَرْبِ بُعَاثٍ في مِخْرَف تَـمْرٍ، ومن حَرْبِ غَطَفَانَ في سَبَقِ دَابَّةٍ. فَحِئْتَنَا أنتَ بنَوْعٍ من العَجَبِ أَبْطَلَ كُلَّ عَجَبٍ، وآنَسَنَا بكُلِّ غَرِيبٍ، وحَسَّنَ عِنْدَنَا كُلَّ قَبيحٍ، وقَرَّبَ عِندَنا كُلَّ بَعيد»[٣٧]. ولا يخفى استدعاء الحوادث من خلال أسلوب التبكيت الذي بدأ به الجاحظ تعجبه، وكأنه يذكِّر ابن الزيات بليالي السمر التي كانا يتذاكران فيها أفانين الأدب، وكانا يتعجبان معًا من تلك الجهالات العربية القديمة، ولم يكن الجاحظ يتوقع يومًا أن تكون عقلية ابن الزيات مثل تلك العقليات الجاهلية، فضلاً عن أن يتعامل معه بحماقات مشابهة لها، ألست تراه يقول له: «فَإِنْ

(٣٧) الجاحظ، في الجد والهزل: ص٢٤١.

جَهِلْتُ - أَعَزَّكَ اللهُ - غَضَبَكَ فَمِثْلي جَهِلَ مَا لا عِلَّةَ لَهُ...»[٣٨]، وتأمَّلْ قوله: (ما لا عِلَّةَ له) تجدها خلاصة لشكايته كلها.

ومن الفِكَر التي أثارت تعجُّب الجاحظ من أفعال ابن الزيات، أنه لم يغفل عن شيء من أموره، حتى الخاصة منها، فأدرك أن ابن الزيَّات كان يضعه تحت المجهر، وبدا له الأمر وكأنه صورة من صور التَّتبُّع والتدقيق، أو مشهد من مشاهد الإصرار على الإهانة والتصغير.

نَقِمَ ابنُ الزيات على هذا الشيخ الفاني أن يتطلَّب إنجاب الأبناء بعد أن بلغ هذه السِّنَّ العالية، فراح يذكر ذلك لندمائه، ويسخر منه ويهزأ به، فآلَمَ الجاحظَ ذلك أشد الإيلام، ومضى يعجب من ابن الزيات كيف يتدنَّى إلى ذِكْرِ هذه الموضوعات الحميمية الخاصة وهو الوزير الأديب، بل هو الصديق النديم! ولذا فلا غرابة عندما تأتي كلماته مجلَّلة بالدمع والأنين، «دَعْ عَنكَ كُلَّ شَيءٍ، مَا كان عَليكَ أنْ يكونَ لي وَلَدٌ يُحْيِي ذِكْرِي، ويَحْوِي مِيرَاثي، ولا أَخْرُجَ من الدُّنيَا بِحَسْرَتي!... مَا كَانَ عليك من بُنَيٍّ صَغيرٍ يَكُونُ لي!... ما كان عليكَ - مع كِبَرِ سِنِّي وضَعْفِ رُكْني - أنْ يكونَ لي رَيْحَانَةٌ أَشُمُّهَا وثَمَرَةٌ أَضُمُّهَا، وأَنْ أَجِدَ إلى الأَماني به سَبَبًا، وإلى التَّلَهِّي سُلَّمَا!...»[٣٩]. فهذه الأسئلة التعجُّبيَّة المتألمة تثير المتلقي العام الذي ليس طرفًا في القضية، وتدفعه إلى التعاطف مع الجاحظ دون ابن الزيات.

ومثل ذلك عندما سخر ابن الزيات من الوسائل التي يستخدمها الجاحظ في تآليفه، فراح يهزأ به على استخدامه الكاغد الخراساني، والورق الصيني. بل انتقده في طريقته في التصنيف، فوصفه أمام الناس - من غير تعيين - بالفوضوية العلمية

---

(٣٨) الجاحظ، في الجد والهزل: ٢٤١.

(٣٩) الجاحظ، في الجد والهزل: ص٢٥٤ - ٢٥٥.

لأنه يترك «دَفَاتِرَ عِلْمِهِ مُتَفَرِّقَةً مَبْثُوثَةً، وكَرَارِيسَ دَرْسِهِ غَيْرَ مَجْمُوعَةٍ ولا مَنْظُومَةٍ»(٤٠)، مما يعرِّضها للتلف والضياع.

وكُلُّ ذلك أَدْهَشَ الجاحظ وأَثار عَجَبَه، أليس يقول له: «ولقد تَقَدَّمْتَ في المَكْرِ واسْتَظْهَرْتَ عَلَيَّ في الكَيْدِ، حتى تَوَلَّيْتَ ذلك في صِغَارِ كُتُبي، وفيما لا يُحْفَلُ به من دَوَامِ أَمري»(٤١). إذ كيف يَتَهَاوى ابن الزيات إلى هذا الدَّرَكِ من الموضوعات، فيتدخل في طريقة التأليف وأساليب التصنيف، بل حتى أدوات الكتابة! مع أنه البعيد عن هذا كله، فلا خبرة له فيه ولا معرفة له بطرائقه، فالعادة في التصنيف أن يبدأ المصنف كتابه على هيئة فصول، ثم يجمع الشبيه إلى الشبيه ويضم النظير إلى النظير حتى يستوي كتابًا متناميًا متناسقًا كاملاً.

إنَّ تَوَغُّلَ ابن الزيات في دخائل الجاحظ وشأنه الخاص كان مثيرًا للغرابة والتعجب، وداعيًا إلى الشك في الغاية، ولم يكن الجاحظ غائبًا عن هذه الغاية، لكنه كان مذهولاً من الأساليب التي تَدَنَّى إليها ابن الزيات ليبلغ غايته تلك، وهذا ما دفعه لأن يثور قائلاً: «مَا هذا الاسْتِقْصَاءُ؟ وما هذا البَلاءُ؟ وما هذا التَّتَبُّعُ لغَوَامِضِ المَسْأَلَةِ، والتَّعَرُّضُ لدَقَائِقِ المَكْرُوه؟ وما هذا التَّغَلْغُلُ في كُلِّ شَيْءٍ يُخْمِلُ ذِكْرِي؟ وما هذا التَّرَقِّي إلى كُلِّ ما يَحُطُّ من قَدْري؟»(٤٢).

وعندما يتأمل الجاحظ الأساليب التي كاد له بها ابن الزيات، يجد أن الرجل كان يحاربه بأسلوب ذكي، فلم تكن حربًا معلَنة ولا مشتهرة ولا واضحة ولا بادية، بل كانت على الضِّدِّ تمامًا من ذلك، ظاهرها الإجلال والتقدير، بل الإشادة والتبجيل، لكن ذلك كله كان إملاء واستدراجًا، حتى إذا ارتفع ذِكْرُهُ بين الناس،

(٤٠) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٤٦.

(٤١) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٥١.

(٤٢) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٥٢.

وطار صيته، جعل من ذلك عِلَّة للإيقاع به وقتله. فاكتشف أنه لم يكن يُعْليه إلا ليوجعه في السقوط، وعرف أنه كان يُغْنيه ليزيد حقد الفقراء عليه، ويزيد في عطائه ليجعله حجة للقبض عليه، «كُنتُ لا أدْري ما كَانَ وَجْهُ حُبِّكَ لإعْنَاتي، والتَّشْييدِ بذِكْرِ تُرَاثي، والتَّنْويهِ باسْمي... فإذَا أَنْتَ لم تَرْفَعْ ذِكْري في الأَغْنِيَاءِ إلا لِتَعْرِضَ ذَنْبي للفُقَرَاء، ولم تُكَثِّرْ مالي إلا لتُقَوِّيَ العِلَّةَ في قَتْلي»(٤٣). وقد هَالَ الجاحظَ هذا النوع من المكائد؛ لأنه نَسِيَ أنه يتعامل مع سياسيٍّ تدور حياته على المكر والمكيدة؛ ولا نرى غرابة عندما يعبِّر الجاحظ عن تعجُّبه بمثل قوله: «فيَالَهَا مَكِيدَةً ما أَبْعَدَ غَوْرَهَا! ويالَهَا حُفْرَةً ما أَبْعَدَ قَعْرَهَا! لقد جَمَعَ هذا التَّدْبيرُ لَطَافَةَ الشَّخْصِ، ودِقَّةَ المَسْلَكِ، وبُعْدَ الغَايَة»(٤٤). فهذا الأسلوب في صياغة العتاب يعلي من الوظيفة التعبيرية. ومضى الجاحظ - ليحقق هذه الوظيفة - يُعَظِّم مكيدة ابن الزيات له، واحتياله للإيقاع به، مستثمرًا ثقافته الواسعة، جاعلاً من حِيَل الدهاة والمَكَرَة وأحابيل المراوغين في التاريخ البشري، أمثلة تتصاغر أمام مكر ابن الزيات به «واللهِ لَوْ دَبَّرَهَا الإسْكَندَرُ على دَارَا بنِ دَارَا، أو اسْتَخْرَجَهَا المهلَّبُ على سُفيَانَ بنِ الأبْرَدِ، وفُتِحَتْ على هَرْثَمَةَ في مَكيدَةِ خَازِمِ بنِ خُزيمَةَ، ولو دَبَّرَهَا لُقَيْمُ بنُ لُقْمَانَ على لُقْمَانَ بنِ عَادٍ، ولو أرَاغَهَا قَيْسُ بنُ زُهَيْرٍ على حِصْنِ بنِ حُذَيْفَةَ، ولو تَوَجَّهَتْ لِكُهَّانِ بني أَسَدٍ على دُهَاةِ قُرَيْشٍ، لقد كان ذلك من تَدْبيرِهِمْ نَادِرًا بَديعًا، ولكان في مَكَايدِهِمْ شَاذًّا غَريبًا»(٤٥). بل وجد أن الأمثلة الخاصَّة ذات الذوات المشهورة والشخوص المعلومة، لا ترتقي لمكر ابن الزيات ودهائه، فراح يقارنه بأمثلة عامَّة ليفتح لخيال المتلقِّي مجالاً رحيبًا في تصوُّر مَكْرِ ابن الزَّيَّات، فَقَرَنَهُ بأساطين التخييل، ومَهَرَة الكذب، مُقِرًّا له بالتفوُّق عليهم «هذا

(٤٣) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٥٦.

(٤٤) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٥٦.

(٤٥) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٥٦.

واللهِ التَّدْبيرُ! لا مَخَارِيقُ العَرَّافِ، وتَزَاوِيقُ الكَاهِنِ، وتَهَاوِيلُ الحَاوي، ولا ما يَنْتَحِلُهَا صَاحِبُ الرَّئيِّ. بل تَضِلُّ فيها رُقَى الهِنْدِ، وتُقِرُّ بهَا سَحَرَةُ بَابِلَ»(٤٦). إن الدهشة والاستغراب هي المسلك التعبيري الذي يُضخِّم به الكاتب من صورة المخاطَب، وبقدر ما تُضَخَّمُ الصورةُ من زاوية الانفعال يزداد المقصد الهجائي المبطَّن اتضاحًا وإقناعًا للمتلقي من وراء المخاطب.

ويستعيد الجاحظ - وهو يعاتب ابن الزيات - شيئًا من ذكريات إخلاصه له، ويقارن بين شعوره تجاهه، وشعور ابن الزيات تجاهه، ويتعجَّب من تباين الصورتين، فأحدهما كان يُفدِّي الآخَرَ بنفسه، ثم يجد ذلك قليلاً، بل هيِّنًا؛ فنفسه لا تقوم لمكانة صاحبه ولا مستواه، وبينما هو يعلي شأن صاحبه ولا يجد نفسه كفؤًا له، إذ بصاحبه يكيد له، ويطوي له الأحابيل، ويستدرجه ليقتله! وكأن الجاحظ يقول لابن الزيات: انظر إلى ما في نفسي لك، وما في نفسك لي «إنَّ اللهَ يَعْلَمُ... لَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَفَدِّيَكَ بنَفْسي في بَعْضِ كُتُبي، وكُنتُ عند نَفْسي في عِدَادِ المَوْتَى وفي حَيِّزِ الهَلْكَى، فَرَأَيْتُ أنَّ من الخِيَانةِ لكَ ومن اللُّؤْمِ في مُعَامَلَتِكَ، أنْ أُفَدِّيَكَ بنَفْسي مَيِّتَةً، وأنْ أُرِيَكَ أنِّي قد جُدْتُ لك بأَنْفَسِ عِلْقٍ، والعِلْقُ مَعْدُومٌ. ليس أَنَّ من قد فَدَّاكَ فقد جُعِلَ فِدَاكَ، ولكِنَّهَا نِهَايَةٌ من نِهَايَاتِ التَّعْظيمِ، ودَليلٌ من دَلائلِ الاجْتِهَادِ»(٤٧). وتأمَّل قوله: (من الخِيَانةِ لكَ ومن اللُّؤْمِ في مُعَامَلَتِكَ) مشيرًا إلى موقف ابن الزيات منه، فكأنه يقول له: تَرَفَّعْتُ أنا عَمَّا تَدَنَّيْتَ أنت إليه، أَجْلَلْتُكَ عن أن أُفدِّيك بنفسي، ويكون جزائي منك الخيانة واللؤم في المعاملة!

(٤٦) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٥٧.

(٤٧) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٦٧.

ونرى من جهة أخرى أن الجاحظ لم يغفل عن عقد موازنة بين ردود أفعال ابن الزيات في مواجهته لأصحابه ولأعدائه، فيجده إنسانًا غريبًا، يجسر على مواجهة أصدقائه، فيتنمّر لهم، ولا يتجاوز عن زلّاتهم، لكنه يَحْسِرُ عن مواجهة أعدائه، ويتخاذل أمامهم، ويجبن عن ملاقاتهم؛ إيثارًا للسلامة من شرورهم.

ولا يخفى ما لهذه الفكرة من تقوية للوظيفة التعبيرية؛ لما فيها من مزج بين التعجب والسخرية، إذ هو يتعجب من ذلك الـخُلُق الدنيء الذي جعله يستعرض قوَّته على أصدقائه الذين أحسنوا به الظن، لكنه يجبن عن أعدائه: «سُبْحَانَ اللهِ، يَسْلَمُ عَلَيْكَ حَيْدَرُ الأَفْشينُ، ويَهْلِكُ عَلَيْكَ عَمْرٌو الجَاحِظُ! ويَسْعَدُ بكَ أَبْعَدُ البُعَدَاءِ، ويَشْقَى بكَ أَقْرَبُ القُرَبَاءِ! وتَتَغَافَلُ عَنْ مِثْلِ الجِبَالِ الْتِمَاسًا للتَّسَلُّمِ وحُبًّا للسَّلامَةِ، وتَغَلْغَلُ إلى الـمُحَقَّرَاتِ طَلَبًا للتَّعَرُّضِ وحُبًّا للشَّرِّ!»[٤٨]. وتأمَّل قوله: (تَتَغَافَلُ عَنْ مِثْلِ الجِبَالِ) في حَقِّ أعدائك، لكنك (تَغَلْغَلُ إلى الـمُحَقَّرَاتِ) في حَقِّ أصدقائك.

وقريبٌ من هذا تعبيره عن تَعَجُّبِهُ من شدة فرح ابن الزيات بعد أنْ ظفر ببعض ما يتمنى منه، وكأنه ظفر بعظيم: «لا واللهِ، لَكَأَنَّكَ وَقَعْتَ على مَطْمُورَةٍ، وظَفِرْتَ بِرَأْسِ خَاقَانَ!»[٤٩].

كما استطاع الجاحظ أن يوظف مهارته التعبيرية من خلال النفاذ إلى مناطق خفيَّة في خِطابه لابن الزيات، ليجبره على الاعتراف بأنه أخطأ في حقِّه؛ وذلك من خلال قلب تَعَجُّل ابن الزيات وسرعته للإضرار به، لتكون هذه العجلة حُجَّةً عليه، ومدعاة لذَمِّ الناس له. ثم يستخدم ذلك في الضغط النفسي عليه، مستثمرًا أسلوب التعجب، فراح يتعجب من عدم اكتراث ابن الزيات بما يقوله الناس عنه، ووصفهم

(٤٨) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٦٨.

(٤٩) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٦٩.

إياه بالتَّسرُّع والسُّخف: «كَأَنَّكَ لم تَحْفَلْ بما يَشيعُ لكَ من اسْمِ الـمُتَسَرِّعِ، وبما تُضَافُ إلَيْهِ من سُخْفِ الـمُتَتَرِّعِ»(٥٠). فكأنه جعل خطأه عليه أمرًا مسلَّمًا به مفروغًا منه، وليس هو محل البحث، وإنما العجب من عدم اكتراثك بما يقال عنك. وبهذا يبلغ الجاحظ مراده، وهو إقرار ابن الزيات بذنبه تلقائيًّا، وذلك بإشعاره بالأسف من وصف الناس له بتلك الصفات.

ولم يتنبَّه ابن الزيات إلى أن الجاحظ أنفق عمره في خدمته، فيصعب حينئذ التَّغيُّر عليه أو التَّنكُّر له، وهي اللمحة التي لم تَفُتْ أبا عثمان الإشارةُ إليها؛ لأنه وازن بين تعامل ابن الزيات معه في كهولته، وتعامله معه في هَرَمِهِ، فوجد البون شاسعًا، وتعجَّب أن ينتهيَ حاله هذه النهاية التي تتعارض مع المنطق البشري، فلو أنه جفاه شابًّا ثم أكرمه شيخًا كبيرًا، لما كان في ذلك عجب: «فَكَيْفَ وقد أَكْرَمْتَني جَديدًا، ثم تُريدُ أنْ تُهينَني خَلَقًا! وقَوَّيْتَ عَظْمي أَغْلَظَ ما كانَ، ثم تُريدُ أنْ تُوهِنَهُ أَرَقَّ ما كَانَ! وهَلْ هَرِمْتُ إلّا في طَاعَتِكَ! وهَلْ أَخْلَقَني إلّا مُعَانَاةُ خِدْمَتِكَ!»(٥١). إن هذا التناقض في مواقف المخاطَب هو الذي يتحول في الخطاب الجاحظي إلى مورد من موارد القيمة التعبيرية للخطاب الأدبي.

ويلاحظ الجاحظ أن ابن الزيات يضجر عندما يُلَحُّ عليه في طلب المسامحة والعفو، لكنه في المقابل لا يُقدِّر ضجر هؤلاء الـمُلِحِّين من تشاغله عنهم. ولَمَّا وازن الجاحظ بين الموقفيْن، تعجَّب منه أنْ يستقبح منهم ما يفعله هو بهم، فيتضجَّر من طول إلحاحهم، مع أنهم مدفوعون إلى ذلك بدافع الخوف على النفس من التلف، بينما هم يضجرون من تشاغله، مع أنه مستغنٍ عن عقابهم، «والعَجَبُ أَنَّكَ تَضْجَرُ

(٥٠) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٧٠.

(٥١) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٧٣.

من طُولِ مَسْأَلَتِنَا لِعَفْوِكَ، مَعَ حَاجَتِنَا إلى عَاجِلِ عَفْوِكَ، ولا تَضْجَرُ بطُولِ تَشَاغُلِكَ بظُلْمِ صَدِيقِكَ، مَعَ اسْتِغْنَائكَ عن ظُلْمِ صَدِيقِكَ!»(٥٢).

ويتضح لنا بعد هذا الاستعراض لأساليب التعجب في الرسالة أن الجاحظ كان مغرمًا بتتبّع التناقضات وعقد المقارنات، وهي - لا شكَّ - إحدى خصائصه العقلية التي استفادها من ثقافته الواسعة، وأنه يتخذ هذه المقارنات وسيلة لإقناع القارئ بصحة تَعَجُّبه وصوابه، بل والاشتراك معه فيه. ورأينا أن التعجب أسلوبٌ من أساليب الخطاب، ذو قيمة تعبيرية عالية ومكثفة؛ لأن حكاية أفعال ابن الزيات تُبرِز وجوه تناقضه الباعثة على الانفعال النفسي، وهو انفعالٌ أراد به الجاحظ - من خلال توظيف القيم التعبيرية – إشراك المتلقِّي في الإحساس به والانفعال معه من خلاله.

٣- التحضيض.

سبق القول أن الغرض الرئيس للرسالة هو: العتاب، وأن خطابه انفعالي تعبيري؛ ولذا فمن الطبيعي أن نجد حضورًا لوظيفة التحضيض؛ لأن العتاب وسيلة للتحضيض وعَتَبَةٌ له، وبما أن الجاحظ يعاتب ابن الزيات على أفعاله الغالطة، فقد اضطر لأنْ يطرح له البدائل الصحيحة ويحضَّه عليها. ومن هنا تبرز وظيفة التحضيض في أنها ترشد ابن الزيات إلى تلك الخطوات الصحيحة التي ضَلَّ عنها، وكان عليه الأخذ بها.

وقد عبَّر الجاحظ عن هذه الوظيفة تعبيرًا غير مباشر، فلم يَجْرِ فيها على الأساليب المعروفة عند أهل النحو، من حيث صِيَغُهُ وأدواته، وإنما سلك به مسلك الكُتَّاب البلغاء، والمترسلين من أهل الفن؛ ليوظفه فيما يخدم غرضه من الرسالة،

(٥٢) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٧٥.

وينزله منازله المقصودة، في تصرُّف بيانيٍّ بديع، فتحوَّل معنى التحضيض معها في الخطاب إلى معنى عام يؤدي وظيفة شاملة يشترك معه معنيا: العَرْض، واللوم والتوبيخ.

وتتبدَّى وظيفة التحضيض التعبيرية عندما حذَّره من عداوة العقلاء والعلماء، وحذَّره من التَّنكُّر لجلساء الخاصَّة الذين اطَّلعوا على دخائل المرء؛ فإن التَّنَكُّر لهم سيطلق ألسنتهم بالحديث عمَّا عرفوا «ولا أَعْلَمُ تِجَارَةً أَكْثَرَ خُسْرَانًا ولا أَخَفَّ مِيزَانًا من عَدَاوَةِ العَاقِلِ العَالِمِ، وإطْلاقِ لِسَانِ الجَليسِ المُدَاخِلِ، والشِّعَارِ دُونَ الدِّثَارِ، والخَاصِّ دُونَ العَامِّ»(٥٣)، ويوجه إليه تحذيرًا عنيفًا «واحْذَرْ زَلَّةَ العَالِمِ»(٥٤). إن هذا التحذير يحمل في طيَّاته معنى عميقًا أراده الجاحظ، وهو الحَضُّ على مؤاخاة هذه الطبقة من الناس، أو على الأقل مداراتهم؛ لأنهم أعلم الناس بمواطن الضعف، إما من خلال اطِّلاعهم عليها ومعرفتهم بها؛ لمكانتهم وموضعهم من المرء، أو لأنهم يستطيعون الوقوف عليها والوصول إليها بما أُوتوا من سعة إدراك، وقدرة على معرفة البواطن من خلال الظواهر، تلك القدرات التي يؤازرها العقل والحكمة والتجربة.

ومن المعاني التي ساق الجاحظ لها أسلوب التحضيض نُصْحُهُ إياه بالتأنِّي والتَّعقُّل قبل الولوج في العداوات، ومشاورة العقل والحزم قبل الإقدام على مصاولة أهل القدرة في فنونهم، وذلك بمعرفة قدر نفسه ومدى قدرته على مثل هذه المواجهات «فَشَاوِرْ لُبَّكَ، ونَاظِرْ حَزْمَكَ، وقِفْ قَبْلَ الوَثْبَةِ»(٥٥)، وتأمل قوله «قِفْ قَبْلَ الوَثْبَةِ» ففيها معاني تهديدٍ غائبة، متردِّدةٍ بين الخوف من ذي السَّطوة المغتلم، والأنفة للنفس العَرُوف. وكأنه يعرض عليه أن يتراجع قبل أن يَلِجَّ بينهما العِدَاءُ، فإنه إن أحرج أديبًا

(٥٣) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٣٣.

(٥٤) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٤٥.

(٥٥) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٤٥.

بحجم الجاحظ فلينتظر ما يسوؤه؛ لأنه ليس بمنزلته وإن كان يُعَدُّ في الناس كاتبًا «والطَّالِبُ - جُعِلْتُ فِدَاكَ - بعُرْضِ ظَفَرٍ ما لم يُحْرِجِ الـمَطْلُوبَ، وإليه الخِيَارُ ما لم تَقَعِ الـمُنَازَلَةُ. ومن الحَزْمِ ألاَّ تَخْرُجَ إلى العَدُوِّ إلا ومَعَكَ من القُوَى ما يَغْمُرُ الفَضْلَةَ التي يُنْتِجُهَا له الإحْرَاجُ. ولابدَّ أيضًا من حَزْمٍ يُحَذِّرُكَ من مَصَارِعِ البَغْيِ، ويُخَوِّفُكَ نَاصِرَ الـمَطْلُوب»(٥٦).

ومثل ذلك عندما راح يلومه على محاولة شفاء غيظه فيه، ويحذِّره من مغبَّة الانسياق خلف هذا الهاجس، بل قل: إنه يهدِّده إذا استمرَّ في الطريقة التي يعامله بها «والـحَازِمُ لا يَلْتَمِسُ شِفَاءَ غَيْظِهِ باجْتِلابِ ضِعْفِهِ، ولا يُطْفِئُ نَارَ غَضَبِهِ تَأَخُّرُ عُقُوبَةِ مَنْ أَغْضَبَهُ، ولا يُسَدِّدُ سَهْمَهُ إلَّا والغَرَضُ مُـمْكِنٌ، والغَايَةُ قَرِيبَةٌ»(٥٧). وفي ذلك حَضٌّ على عدم الاصطدام به؛ لأن هذا الاصطدام سيجلب عليه ضعف غيظه.

وليس بمستغرب أن يكون الحض على الأناة والتؤدة أحد المعاني التي تطرق إليها الجاحظ في رسالته، لاسيما وهو يواجه عدوًّا صائلاً يبحث عن أدنى سبب للإيقاع به؛ ولذا كان الحضُّ على التفكُّر في عواقل الأمور، وبيان إيجابيات الأناة نوعًا من دفع العقوبة أو تأخيرها؛ لذا استخدم أسلوبه المعتاد في التحضيض، فعقد موازنة بين صاحب العجلة وصاحب الأناة، وحاول من خلالها الوصول إلى مراده «وصَاحِبُ العَجَلَةِ - أَعَزَّكَ اللهُ - صَاحِبُ تَغْرِيرٍ ومُخَاطَرَةٍ، إنْ ظَفِرَ لم يَحْمَدْهُ عَالِمٌ، وإنْ لم يَظْفَرْ قَطَّعَتْهُ الـمَلاومُ... وصَاحِبُ الأَنَاةِ إنْ ظَفِرَ نَفَعَ غَيْرَهُ بالغُنْمِ، ونَفَعَ نَفْسَهُ بثَمَرَةِ العِلْمِ... وإنْ حُرِمَ فَمَبْسُوطٌ عُذْرُهُ»(٥٨).

---

(٥٦) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٣٣.

(٥٧) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٣٤.

(٥٨) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٤٣-٢٤٤.

وقد أدرك الجاحظ أن الدافع الرئيس لابن الزيات في تصرفاته تلك هو: الحسد، الذي وَلَّدَ شدة الغيظ؛ ولذا أَلَحَّ كثيرًا على تحذيره من سلطان الغيظ، وحضَّه على عدم تمكينه من نفسه؛ لأنه يحيد بصاحبه عن جادَّة الصواب، مستخدمًا في ذلك أسلوب التصوير، فهو تارة يبيِّن له آثاره في صورة مَهُولَة «لا أَعْلَمُ نَارًا أَبْلَغَ في إِحْرَاقِ أَهْلِهَا من نَارِ الغَيْظِ، ولا حَرَكَةً أَنْقَضَ لِقُوَّةِ الأَبْدَانِ من طَلَبِ الطَّوَائلِ. مع قِلَّةِ الهُدُوءِ، والجَهْلِ بمَنَافِعِ الجَمَامِ، وإِعْطَاءِ الحَالاتِ أَقْسَامَهَا من التَّدْبيرِ»[٥٩]. واستعمال صورة النار من أبلغ الوسائل الاستعارية المؤثرة في بناء الوظيفة التعبيرية. وتارةً يوضِّح له كنهه وحقيقته، عندما يستخدم أسلوب التشبيه لتقريب صورته البشعة ولتنفير المخاطَب منه «إنَّ سُلْطَانَ الغَيْظِ غَشُومٌ، وإنَّ حُكْمَ الغَضَبِ جَائرٌ، وأَضْعَفُ ما يَكُونُ العَزْمُ عن التَّصَرُّفِ أَضْعَفَ ما يَكُونُ الحَزْمُ. والغَضَبُ في طِبَاعِ شَيْطَانٍ، والهَوَى يَتَصَوَّرُ في صُورَةِ امْرَأَةٍ، فلا يُبْصِرُ مَسَاقِطَ العَيْبِ ومَوَاقِعَ الشَّرَفِ إلَّا كُلُّ مُعْتَدِلِ الطِّبَاعِ، ومُعْتَدِلِ الأَخْلاطِ مُسْتَوي الأَسْبَابِ»[٦٠]. ثم حشد الجاحظ أدواته البيانية في تصوير سلطان الغضب وسطوته بمثل قوله: «الغَضَبُ يَغْلِبُ العَزْمَ... ويُحَيِّرُ اللُّبَّ... والغَضَبُ يُصَوِّرُ لصَاحِبِهِ مِثْلَ ما يُصَوِّرُ السُّكْرُ لأَهْلِهِ»[٦١]، ويصوِّر مساوئه على الغضبان «والغَضْبَانُ يُشْعِلُهُ الغَضَبُ، ويَغْلي به الغَيْظُ... ولا يَعْتَريهِ من الخَوَاطِرِ إلَّا ما يَزِيدُهُ في دَائِهِ»[٦٢]، إلى أن بلغ الغاية القصيّة في شدة التحذير منه، فمثَّله في صورة الغول المتوحِّش الذي لا يكاد يقف في وجهه شيء «ولَيْسَ يُصَارِعُ الغَضَبَ أَيَّامَ شَبَابِهِ وغَرْبَ نَابِهِ شَيْءٌ إلاَّ

(٥٩) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٣٢.

(٦٠) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٣٤.

(٦١) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٦٠.

(٦٢) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٦٠.

صَرَعَهُ، ولا يُنَازِعُهُ قَبْلَ انْتِهَائِهِ وإِدْبَارِهِ شَيْءٌ إلاَّ قَهَرَهُ»[٦٣]، إن هذا التهويل والتشنيع المشفوع بالإلحاح في بيان أضرار الغضب ومساوئ الغيظ هو في حقيقته حَضٌّ لابن الزيات كي ينزع عنه، ولا ينساق فيه.

وكان من جملة ما حضَّه عليه الإحسان إلى الصديق الوَادِّ، وعدم التفريط فيه وإن أخطأ في حقِّه؛ فإن المودَّة عزيزة، ويندر أن يظفر الإنسان بصاحب يُصْفِيهِ المودَّة؛ لذا يجب التجاوز عن هفوات الصديق. فإذا كان العقل يفرض التجاوز عن هفوات الصديق، فما بالك بمن يجعل طول الصحبة سببًا للتضجّر، فهو يتسقَّط زلاّت صديقه، ويتململ منه، لا لشيء إلا لقِدَم الصحبة وطول العلاقة بينهما، ولذا فهو يبحث عن أصدقاء جُدُد[٦٤]. بل يذهب الكاتب في هذا المعنى إلى أبعد من ذلك عندما صَوَّر له مكانة الصديق من الإنسان، فقد صوَّرها في أجزاء النفس وأعضاء الجسد، مع كثرة العدد، واختلاف الأخلاط وتباعد الأماكن، إلا أنها نفس واحدة وجسد واحد؛ لاستواء خواطرها واتفاقها على الإرادة، وفي هذا تحضيضٌ على الاستمساك بالصديق، فمهما اختلف معه في الرأي فليس ذلك بغريب؛ لأن لكل منهما دوره في الحياة، إلا أن استواءهما في المَحَابِّ واتفاقهما في الهوى وتشاكلهما في الشهوة، هو الذي يقرِّب بينهما، ومن بان منه صديقه فقد انقطع شطره؛ لأن ذهاب البعض ذهاب للكل، ثم نقل التحضيض إلى جانب أبعد عندما حضَّه على المحافظة على حياته هو عندما ربط بقاءه واستمراره ببقاء أصحابه واستمرارهم؛ لأنه يستمد القوة المعنوية من

(٦٣) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٦٠.

(٦٤) الاستمساك بالصديق القديم من المعاني التي ردَّدها الجاحظ غير مرة في رسالته، وألَحَّ عليها في مواضع عدَّة، انظر مثلاً: ص٢٣٣ و ٢٣٦، و ٢٤٥.

هذه الثلَّة من العلماء حوله «فَمَوْتي هُوَ مَوْتُ صَديقي، وحَيَاتي هيَ حَيَاةُ صَديقي»(٦٥).

ويذكر سببًا آخر للغاية ذاتها، فيستعطف ابن الزيَّات من خلال حَضِّه على الاستمساك به وعدم التفريط في صداقته، بتيئيسه من وجود صديق في مثل إخلاصه له، وتفانيه في خدمته، صديق ينهض بواجبات الصداقة ورسومها، فيحفظ سِرَّه، ويشاركه آلامه، ويخلو من حسده، فيكون لصديقه روحًا يأنس بها، ونفسًا يسكن إليها. بل يحضُّه على الحفاظ عليه لأن الخير في الدنيا قليل، فيندر أن تجد صاحبًا يحفظ الصنيعة. وفي هذا شكل من أشكال دهاء الجاحظ، فقد عدَّد مزاياه لابن الزيات تذكيرًا له بها، وهو بذلك يقطع خيوط الأمل كلها في أن يجد ابن الزيات صاحبًا مثله، ويشعره بأنه سيبقى في الدنيا وحيدًا إن استجاب لنزعات نفسه فقتله أو سجنه أو طرده. فجعل ابن الزيات متفرِّدًا باصطناع المعروف إلى الناس، وجعل نفسه متفرِّدًا بتقدير الصنائع والقيام بواجبها(٦٦).

ويوظِّف الجاحظ - أحيانًا - أسلوب ضرب المثل في التحضيض، وذلك أنه لما أراد أن يحضَّه على ترك الظلم استشهد بخبر أسد القسري وهو والي خراسان لما مَرَّ بالدهقان الذي يعذَّب في حبسه، فقال له الدهقان: «إنَّ السَّمَاوَاتِ تَنْفَرِجُ لِدَعْوَةِ المَظْلُومِ. يا أَسَدُ، إنَّ البَغْيَ مَرْتَعُهُ وَخِيمٌ...»(٦٧). فهو ينتهج هذا الأسلوب ليصوِّر له المشهد، وليقرِّب له الصورة؛ ليوقع في نفسه الرهبة والخوف، وليبيِّن له أن عَتَبَهُ عليه وتوجُّعَه من الظلم سُنَّةٌ جارية في كل مظلوم، وأن نهاية الظالم في كل زمان الخيبة والخسران في الدنيا والآخرة.

---

(٦٥) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٧١.

(٦٦) انظر: الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٧٢.

(٦٧) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٤٤.

ثم عاد فاستخدم الأسلوب نفسه للهدف ذاته، لكنه غَيَّر الوسيلة، فجعلها ترغيبًا لا ترهيبًا، فاستشهد بخبر آخر يُنسب للحَسَنِ عندما حضر أميرًا ظلومًا غشومًا أفرط في عقوبة بعض المذنبين ولم يرتدع حتى بعد أن ذكَّره الحسن، ثم جعل الجاحظ هذا الخبر وسيلة لمدح ابن الزيات وتنزيهه عن أن يشبَّه بذلك الأمير، بل جعل الخبر سبيلاً إلى الاستعطاف والاسترحام، متراجعًا عن عتابه كله، مستعدًّا لتحمُّل المزيد من العقاب: «ومَعَاذَ اللهِ أَنْ أَقُولَ لكَ كَمَا قَالَ الحَسَنُ لذلكَ الظَّالِمِ المُعْتَدي، والمُصَمِّمِ القَاسي، ولكنِّي أَقُولُ: اعْلَمْ أَنَّكَ تَضْرِبُ مَنْ قَدْ جَعَلَكَ مِنْ قَتْلِهِ في حِلٍّ... ولَوْ أَمْكَنَ في الدِّينِ تَوَاهُبُ قِصَاصِ الآخِرَةِ في الدُّنْيَا... لكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ أَسْمَحَتْ بذلكَ نَفْسُهُ»[٦٨]، فهذا الحضُّ على العفو يجمع بين الذكاء والرقة في استعطاف الخصم المقتدر.

ولما استشعر الجاحظ أن ابن الزيات ربما يأنف - كما هي عادة البشر - من الاعتراف بمساوئه التي منها: الظلم والتجاوز على الآخرين، وملالة الصديق القديم، فقد رسم الطريق الأمثل لمن أراد مداواة نقائصه، فحضَّه على تحسين عاداته وطبائعه، بأن يكتب هذه المساوئ في كتاب مفرد، ثم يعرضه على جهابذة المعاني وأطباء أدواء العقول، لاستشارتهم في معالجة هذه الأدواء. وبيَّن له خطورة إهمال العادات السيِّئة؛ لأنها تُسْكِر المرء، فلا يزال متورِّطًا في الخَطَاءِ مغمورًا بالذم[٦٩]، وجعل الجاحظ كلامه عامًّا غير خاصٍّ بابن الزيات؛ لإخفاء الانفعال، مع أنه هو المقصود، لكنه لم يُرِدْ توجيه الكلام إليه خاصَّةً لئلا يزداد غضبه عليه.

وعلّل ذلك بأن النفس البشرية مجبولة على ضرائب من اللؤم وأنواع من النقص، وجعل من هذه القاعدة سبيلاً للحضِّ على اتِّهامها بالزلل وعدم الاطمئنان

---

(٦٨) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٦٤.

(٦٩) انظر: الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٤٦.

عليها من الهوى، «ولا تُنْكِرْ لنَفْسِكَ أَنْ تَزِلَّ، ولعَقْلِكَ أَنْ يَهْفُوَ، فَقَدْ زَلَّ آدَمُ عَلَيْه السَّلامُ وهَفَا، وعَصَى رَبَّهُ وغَوَى»(٧٠).

وكان تَأَلُّمُ الجاحظ من أسلوب ابن الزيات في التعامل معه دافعًا لأنْ يحضَّه على الطريقة الصحيحة في إظهار شعوره تجاه الآخرين، بغض النظر عن طبيعة هذا الشعور، فقد لا يملكه المرء، لكنه يملك الأسلوب الذي يتعامل به مع الآخرين؛ لذا جاء تحضيضه مفعمًا بالألم والأنين، أو ما عددناه من باب الانفعال ذي القيمة التعبيرية، وهو يطالبه بالتدرُّج في الإبعاد، وتهيئة المخالِف لمرحلة الصَّرم والقطيعة: «فَلَوْ كُنْتَ إذْ أَرَدْتَ مَا أَرَدْتَ، وحَاوَلْتَ ما حَاوَلْتَ، رَفَعْتَ - قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ - المُؤَانَسَةَ، ثُمَّ أَبَيْتَ المُؤَاكَلَةَ، ثم قَطَعْتَ البِرَّ، ثم أَذِنْتَ مع العَامَّةِ... لكُنْتُ وَاحِدًا مِمَّنْ يَصْبِرُ أَوْ يَجْزَعُ»(٧١).

ولما كان ابن الزيات دؤوبًا على الإضرار بالجاحظ، إلى المستوى الذي يَوَدُّ معه أن يجعله في دَرَكَةِ فرعون لينالَه مثل عقابه، بل في منزلة إبليس ليصيبه مثل عذابه، وكانت أفعاله توحي بأمنياته، دعا ذلك الجاحظَ لأن يوقفه على حقيقة نفسه؛ ويحضَّه على توجيه قوَّته وصرف جبروته إلى الطريق الأصوب، فإن كان ابن الزيات يغضب لله تعالى فليحارب إبليس الذي هو سبب كل شرٍّ لابن آدم، وإن كان غضبه لنفسه انتقامًا لها فلينازل أعداءه الأكفاء، لا أن يعمد إلى شيخ في مثل سِنِّ الجاحظ فيسومه سوء العذاب(٧٢).

---

(٧٠) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٦٢. والجاحظ يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ [طه].

(٧١) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٥٧.

(٧٢) انظر: الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٦٨.

٤- المحاكاة الساخرة.

المحاكاة الساخرة أسلوبٌ من أساليب التعبير عن الانفعالات ذات القيمة النفسية، فوظيفتها تعبيرية بالأساس. ولم تَغِبْ عن خطاب هذه الرسالة تلك الروح الهزلية التي جُبل عليها الجاحظ، وبالرغم من معاني العتاب الممزوجة بالألم والمرارة التي حفلت بها الرسالة إلا أن روحه الساخرة تُطِلُّ بين الحين والآخر، وكانت هذه الموهبة سلاحه الذي استثمره هنا للانتصار من خصمه والتّشفّي منه.

ويجب أن نتصوَّر - ابتداءً - أن الجاحظ لم يهدف بسخريته تلك إلى التسلية والإضحاك على الصورة التي نراها في كتاب (البخلاء) مثلاً، أو تلك السخرية المتشحة بالتعالي التي تهدف إلى احتقار الخصم وتصغيره كما في رسالة (التربيع والتدوير)؛ ولذا لم يوجِّه الجاحظ سخريته إلى صورة ابن الزيات الجسمية الشكلية ولم يحفل بها، فما كانت تعني له شيئًا هنا، بل إن شئت فقل إنها ما كانت لتؤدي غرضه الذي يريده، ولم يرسم له صورة كاريكاتورية نتصورها في أذهاننا فترسم البسمة على شفاهنا؛ إذ لم يكن في وُكده رسم صورة هزلية عن ابن الزيات. لكنه ركَّز على معانٍ أخرى تتقاطع مع موضوع رسالته، وتخدم غايته القصيَّة، لم يَمَسَّ فيها إلا ما يؤيد موضوعه ويبرز حُجَّته؛ فلذلك جاء حديثه عن بعض الصفات المعنوية السيئة التي طُبِعَ عليها الرجل، كغيره من بني البشر، والتي كانت طريقًا مؤديًا إلى كثير من التصرفات الخاطئة. ولم يكن للجاحظ هدف إلا الدفاع عن نفسه حينًا، والانتقام لها والانتصار حينًا آخر، بعدما أقصاه ابن الزيات وأهانه.

يسوق الجاحظ سخريته في هذه الرسالة على وجهٍ من المكر عميق؛ إذ لم يكن الخطاب فيها على وجهه الظاهر غالبًا، بل كان أشبه ما يكون بالخطاب ذي القيمة السيميائية الخفية الخاصة. وهو على ثقة بأن ابن الزيات سوف يفهم الرسالة الغائبة التي

تكمن خلف النص الظاهر، والتي يمكن النفاذ إليها بشيءٍ من التفكير البعيد الذي عَهِدَهُ في الرجل؛ ذاك أن الرجلين كانا قد بلغا من التصافي والتقارب ما جعل كل واحد منهما يفهم الآخر الفهم كله، ويدرك أبعاد كلامه وأسرار ما لم يَقُلْ، ويتبيَّن إلماحاته قبل تصريحاته، بل قل: إن كُلًّا منهما كان يعرف كيف يفكّر الآخر، وكيف يعبِّر.

إن هذه الدرجة من التفاهم والانسجام التي كانت بين الرجلين أعانت الجاحظ في الحفاظ على شيءٍ كثيرٍ من هدوئه واتِّزانه، بل جعلته يحافظ على عِفَّةِ لسانه ونقاوته، فلم يكن سليطًا ولا مهذارًا ولا شيئًا مما كان يَتَعَوَّدُ منه، ولم ينزلق إلى السِّباب والشتائم كما نرى عند أبي حيان التوحيدي مثلاً في (مثالب الوزيرين)، بل جاءت سخريته ذات أسلوب راقٍ رائِقٍ، يجد الناظر فيها ألوانًا من المُتَع الأدبية والعقلية وهو يحاول التعمق في هذه الرسالة؛ ليكون ثالث ثلاثة في فهم لغة الخطاب بين الرجلين.

حاول الجاحظ أن يرسم لابن الزيات صورة المسؤول المبتلى بصفات نفسية ذميمة، والتي تتنافى مع هذه المسؤولية وهذا المركز الحسّاس في الدولة، فوصفه بالحسد، والنَّزَق، وعدم القدرة على تقدير المواقف، والظلم، والعجلة، وسوء التدبير، والصَّدِّ عن الإخوان والخاصة، والغفلة عن مآلات الأمور وعواقبها. لكنه لم يكن في مُكنته أن يُظهر سخريته به أو يصرِّح بها، فإن جبروت الرجل وسعة سلطانه وشدة وطأته تُرهب من هم أقوى من الجاحظ وأشد بأسًا، فما بالك بشيخ بلغ من العمر أقصاه! ولذا كان الكاتب يستر هذه السخرية ويعمِّيها بأشكال محقِّقة للوظيفة التعبيرية، ويحاول أن يحفظ لنفسه طريقًا يمكنه العودة منه، وعذرًا يلجأ إليه إن ضاقت به السبل، أو اضطر إلى المضائق.

من أجل ذلك فإن الحديث عن هذه الوظيفة لن يكون ظاهرًا واضحًا كالوظائف الأخرى، بل سيتطلَّب الكثير من العمق والتأويل والبحث عن النصوص الغائبة للوصول إلى المعنى المراد؛ لأن هذه الوظيفة تطلَّبتْ من الجاحظ أن يوظِّف ذكاءه البياني؛ ليبلغ ما يريد ويتقي ما يخاف، ولعل هذا ما دعاه لأن يسمّي رسالته: (الجد والهزل)، فالـجِدُّ طريق الهجوم، والهزل طريق الدفاع. ومن هنا فإن اختلاف المتلقِّين في فهم مقاصد الجاحظ أمرٌ واردٌ جدًّا ومقبولٌ منهجًا، طالما أن الجاحظ نفسه كان يُداري غايته.

والملاحظ أنه لم يخصِّص فقراتٍ في رسالته أو أفكارًا محددة ليسخر منه من خلالها، بل جعلها مبثوثة بين ثناياها، خاضعة لتنزُّل الأفكار وانثيالها عليه، وكلما وجد فرصة إلى الانقضاض عليه والنفاذ إلى السخرية منه استثمرها غير متوانٍ ولا مقصِّر؛ ولذا ظلَّتْ سخريته تُطِلُّ بين الحين والآخر في شيء غير قليل من الحسرة والألم.

وقد حامت المحاكاة الساخرة حول الفكرة الرئيسة للرسالة، وهي أن الجاحظ اكتشف أن ابن الزيات عاداه لأنه يحسده، فإنه بحث عن سبب مقنع لهذه العداوة فلم يجد. ثم نظر فإذا الحسد قد ملأ قلب الرجل حزنًا دائمًا وغيظًا مستمرًّا، فجعل الجاحظ من ذلك مادة وافرة للسخرية منه، عيَّره بها، وظلَّ يهتبل كل فرصة لترادها وتكرارها؛ ليزيد من أَلَمِ خصمه وحسرته، إذ الحسد بابٌ لكل شرٍّ، وبذرة لكل نقيصة؛ ولذا وجد الجاحظ أن الحسد أورث ابن الزيات صفة البَذَاءَ؛ لما فيها من دناءة نفس وخِسَّة طبع، وهذا ما دعاه لأنْ يُقرِّر أنَّ مَنْ «كَانَتْ عِلَّتَهُ طَبِيعَةُ البَذَاءِ، وخُلُقَهُ الشَّرَارَةُ والتَّسَرُّعُ»[٧٣]، فيستحق نهاية بائسة تشبه قتل العقارب ودَمْغَ الحيَّات، بل

(٧٣) الجاحظ، في الجد والهزل، ص ٢٣٨.

أمعن في العقوبة حين قال: «لَوْ لَـمْ تَرْضَ لصَاحِبِهِ بِعِقَابٍ دُونَ قَعْرِ جَهَنَّمَ، لَعَذَرَكَ كَثِيرٌ من العُقَلاءِ، ولَصَوَّبَ رَأْيَكَ عَالَـمٌ من الأَشْرَافِ»(٧٤)، وكأنه يُلْمِحُ للرجل بالعقوبة التي يتمناها هو له؛ ما دامت هذه دخيلة نفسه وطوية فؤاده.

وينوِّع الجاحظ من أساليب السُّخرية والمعايرة بالحسد، فيظهرها أحيانًا بمظهر الشفقة على الـمُبْتَلَى بهذا الداء الدَّوِيِّ، فيدعو له بلهجة هادئة من مثل قوله: «وبَعْدُ - أَبْقَاكَ اللهُ - فَأَنْتَ على يَقِينٍ من مَوْضِعِ أَلَـمِ الغَيْظِ من نَفْسِكَ، والغَيْظُ عَذَابٌ...»(٧٥)، ثم يُلِحُّ في موضع آخر على المعنى ذاته، وكأنه يريد أن يجعل من دائه النفسيِّ أمرًا ثابتًا لا مجال لإنكاره فيقول: «جُعِلْتُ فِدَاكَ، إنَّ دَاءَ الـحُزْنِ وإنْ كَانَ قَاتِلاً فَإِنَّهُ دَاءٌ مُـمَاطِلٌ، وسُقْمُهُ سُقْمٌ مُطَاوِلٌ»(٧٦)، ويبدو الجاحظ هنا ذلك المحلل النفسي، المعبِّر عن خبايا وتلافيف الذات البشرية في أعماقها المظلمة، والتي تحتاج إلى الخطاب التحليلي النفساني ليستنطقها، وكأنه يعايره بمرض نفسي مزمن لا يُرجَى بُرؤه.

وبما أنه مصابٌ بهذا الداء العضال، فيجب أن يتسامى العقلاء عن عقابه، ليتركوه لِعَذَابه الداخلي، وللنار المتَّقدة في قلبه؛ «لأَنَّ أَلَـمَ حَسَدِهِ قَدْ كَفَاكَ مَـؤُونَةَ شَطْرِ غَيْظِكَ عَلَيْهِ»(٧٧)، وكأنه يتنبَّأ بما سيقوله المتنبي:

سِوَى وَجَعِ الحُسَّادِ دَاوِ فَإِنَّهُ إِذَا حَلَّ في قَلْبٍ فَلَيْسَ يَزُولُ

(٧٤) الجاحظ، في الجد والهزل، ص ٢٣٨.

(٧٥) الجاحظ، في الجد والهزل، ص ٢٣٣.

(٧٦) الجاحظ، في الجد والهزل، ص ٢٣٤.

(٧٧) الجاحظ، في الجد والهزل، ص ٢٣٩.

وإمعانًا في فكرة المعايرة بداء الحسد والسخرية ممَّن أصيب به، فقد ظلَّ الجاحظ يردِّدُ جُملاً تدور حول مفردات (الحسد - الحزن - الغضب)، وكأنه يجعلها مفاتيح يؤدي بعضها إلى بعض، فالحسد يورث الحسود حزنًا دائمًا، والحزن يجتلب الغَضب المستمر، واقرأ قوله: «الغَضَبُ في طِبَاعِ شَيْطَانٍ»(٧٨)، و«لا يُبْصِرُ مَسَاقِطَ العَيْبِ إلَّا كُلُّ مُعْتَدِلِ الطِّبَاعِ»(٧٩)، و«دَاءُ الغَيْظِ سَفِيهٌ طَيَّاشٌ، وعَجُولٌ فَحَّاشٌ»(٨٠)، و«ضِيقَ صَدْرٍ، وغِلَظَ طِبَاعٍ»(٨١)، و«الغَضَبُ يَغْلِبُ العَزْمَ... ويُحَيِّرُ اللُّبَّ»(٨٢)، و«الغَضَبُ يُصَوِّرُ لصَاحِبِهِ مِثْلَ مَا يُصَوِّرُ السُّكْرُ لأَهْلِهِ»(٨٣)، و«يُسَمَّى المُتَوَجِّدُ غَضْبَانَ، والذَّكُورُ حَقُودًا»(٨٤). بل تعمَّقَ إلى أبعد من ذلك عندما راح يخصص الحسد ويصرِّح بأسبابه بينهما: «مِنْ أَسْبَابِ العَدَاوَاتِ... تَحَاسُدُ الأَشْكَالِ في الصِّنَاعَاتِ»(٨٥)، وقوله: «لَمْ أَعْجَبْ من دَوَامِ ظُلْمِكَ، وثَبَاتِكَ على غَضَبِكَ... ونَحْنُ نَنْظُرُ في عِلْمٍ وَاحِدٍ، ونَرْجِعُ في النِّحْلَةِ إلى مَذْهَبٍ وَاحِدٍ»(٨٦).

إن هذا الإصرار على إغاظة ابن الزيات وإثارة انفعالاته بترديد هذه العبارات، والإلحاح على مفردات لغوية معينة تحمل في طيَّاتها كثافة تعبيرية مقصودة لذاتها،

(٧٨) الجاحظ، في الجد والهزل، ص ٢٣٤.
(٧٩) الجاحظ، في الجد والهزل، ص ٢٣٤.
(٨٠) الجاحظ، في الجد والهزل، ص ٢٣٥.
(٨١) الجاحظ، في الجد والهزل، ص ٢٣٧.
(٨٢) الجاحظ، في الجد والهزل، ص ٢٦٠.
(٨٣) الجاحظ، في الجد والهزل، ص ٢٦٠.
(٨٤) الجاحظ، في الجد والهزل، ص ٢٦١.
(٨٥) الجاحظ، في الجد والهزل، ص ٢٦٤.
(٨٦) الجاحظ، في الجد والهزل، ص ٢٦٥.

والمعايرة بالعاهات الخُلُقية، هو لونٌ من ألوان السخرية والتعذيب النفسي، واستعراضٌ للنقائص، وتبكيتٌ للأرواح الشريرة.

ويخلُص الجاحظ من عرض الاحتمالات ونفيها، والإلماح إلى داء الحقد، والموازنة بين الذنب والعقوبة، إلى أن ابن الزيات واحد من رجلين: إما أن يكون صغير العقل، سيء التصرف، لا يحسن تدبير الأمور، وبالتالي يفقد أهم أسباب الرياسة والسيادة، التي هي: القدرة على التعامل مع الناس بمختلف طبقاتهم وبتنوع تصرفاتهم. أو هو رجل خبيث الطوية، أعماه حقده، وجعله يكره كل شيء في الجاحظ، لأنه شعر بأفضليته وتفوقه عليه.

وعندما يستبعد الجاحظ الاحتمالات التي أغضبت ابن الزيات لأنه يراها صغيرة لا تستحق الوقوف عندها، بله أن تفسد بين الصَّفِيَّيْن، ثم يردف ذلك باستفهام إنكاري يبيِّن فيه حيرته وعدم اهتدائه إلى السبب الحقيقي لعداوة الرجل له «فَإن جَهِلْتُ - أَعَزَّكَ اللهُ - غَضَبَكَ فَمِثْلي جَهِلَ ما لا عِلَّةَ لَهُ»[٨٧]، فإن ذلك كله لم يكن من الجاحظ على حقيقته، بل كان مقدِّمات ماكرة لما يريد الوصول إليه، وهو أن ابن الزيات رجل أحمق تستثيره صغائر الأمور ومحقراتها، فمن الطبيعي أن يكون الخطاب الخفي هنا: لم أكن أتوقع أن تكون بهذه السطحية والضحالة، فتغضب لمثل هذه الأسباب! ألا يدل على هذا قوله: «إنْ كَانَ ذَلكَ هو الذي أَغْضَبَكَ، وكَانَ هو السَّبَبَ لـمَوْجِدَتِكَ...»[٨٨]. بل يجعل غضبه وحقده لهذا السبب حماقة وتَخَلُّفًا، ويسخر منه إذ يعيش في عصر العباسيين بين مثقفي العراق وعلمائها بعقلية الإنسان الجاهلي «قَدْ كُنَّا نَعْجَبُ من حَرْبِ البَسُوسِ في ضَرْعِ نَابٍ، ومن حَرْبِ بُعَاثٍ في مِخْرَفِ تَمْرٍ، ومن

(٨٧) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٤١.

(٨٨) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٣١. وانظر ما سبق الحديث عنه خلال مبحث التعجب، ص٢٢-٢٣.

حَرْبِ غَطَفَانَ في سَبَقِ دَابَّةٍ. فَجِئْتَنَا أَنْتَ بِنَوْعٍ من العَجَبِ أَبْطَلَ كُلَّ عَجَبٍ، وآنَسَنَا بِكُلِّ غَرِيبٍ، وحَسَّنَ عِنْدَنَا كُلَّ قَبيحٍ، وقَرَّبَ عِنْدَنَا كُلَّ بَعِيدٍ»[٨٩]، يسخر منه بهذا الأسلوب بعد أن أعاد عليه - في حُرْقةٍ - تعجُّبه مما يمكن أن يتعلل به ابن الزيات «مَتَى صَارَ اخْتِيَارُ النَّخْلِ على الزَّرْعِ يُحْقِدُ الإخْوَان!»[٩٠].

وقد جعل الكاتب هذه الفكرة عتبة إلى سخرية أخرى، وذلك عندما قارن بين صنيعه هذا وبين منصبه في الدولة، إذ هو رجل سياسي يفترض فيه أن يضع الأمور في نصابها الصحيح، وأن يوائم بين الأفعال وصداها، فلما لم يكن كذلك إذ بالجاحظ يستغل هذه الثغرة فيمارس عليه دور الأستاذ الذي يعلِّم تلميذه كيف يتعامل مع الناس، والشيخ المؤدِّب مع الصبي المتعلم؛ ليعلِّمه كيف يزاول عمله، وكيف يوزان بين الذنب والعقاب «إنْ كَانَ ذَلكَ هو الذي أَغْضَبَكَ، وكَانَ هو السَّبَبَ لـمَوْجِدَتِكَ، فَلَيْسَ - جُعِلْتُ فِدَاكَ - هذا الحِقْدُ في طَبَقَةِ هذا الذَّنْبِ، ولا هذه الـمُطَالَبَةُ من شَكْلِ هذه الجَرِيمَةِ»[٩١]. ثم يحوِّل ابن الزيات - الوزير - إلى تلميذ يتلمَّس خطاه الأولى في مدارج السياسة، فيعلّمه كيف يفرِّق بين الذنوب السطحية والذنوب العميقة: «إذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرَفَ مِقْدَارَ الذَّنْبِ إلَيْكَ من مِقْدَارِ عِقَابِكَ عَلَيْهِ، فَانْظُرْ في عِلَّتِهِ وسَبَبِهِ...»[٩٢]. وفي موضع ثالث: «ومن الحَزْمِ أَلَّا تَخْرُجَ إلى العَدُوِّ إلَّا ومَعَكَ من القُوى...»[٩٣]. إن توجيه هذا الكلام وأمثاله لرجل في مثل منصب ابن الزيات ومكانته

(٨٩) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٤١.
(٩٠) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٤٠.
(٩١) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٣١.
(٩٢) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٣٧.
(٩٣) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٣٣.

من الخليفة هو ضرب من ضروب السخرية الموصل إلى الإهانة، وإن جاء بلسان الناصح أو إهاب المشفق.

وقد أحسن الجاحظ استغلال فكرة اضطراب تقدير العقوبات التي يعاني منها ابن الزيات، مستفيدًا من ثقافته المتصلة بسُلَّم القيم وتراتبيّتها، وذلك أن «العِلْمَ بأَقْدَارِ الذُّنُوبِ غَامِضٌ، وحُدُودُ الذُّنُوبِ فِي العِقَابِ خَفِيَّةٌ»(٩٤) أسَاسًا، ولا يستطيع المواءمة بينهما عاقلٌ حصيفٌ؛ لذا كرَّر هذه الفكرة كثيرًا، وبنى عليها أحكامًا مختلفة، إذ وجد في تصرُّفه معه منطلقًا واسعًا ومجالاً رحبًا للسخرية السوداء المُرَّة، فعمَّم هذه السلبية فيه، وعايره بها، وتساءل - في ذهول واستغراب - عن الأجدر بالعقوبة، أهو النديم الأديب الذي حُورِبَ وعُودِيَ وهو لا يعرف ذنبه أساسًا! أم هو ذلك السياسي الأرعن الذي يبالغ في رود أفعاله، فيعاقب على الصغير بعقوبة الكبير، وعلى الهفوة بعقوبة الإصرار، وعلى الخطأ بعقوبة العمد(٩٥)!

ولم يكتف بمؤاخذته على اختلال ميزان العقوبات، بل جعل هذه السلبية فيه عامة، وجعلها خللاً في طبيعته، فراح يُثبِّتَ عليه فكرة اختلال الموازين، وعدم القدرة على معرفة المقادير عمومًا، بما في ذلك: مقادير العقوبات، ومقادير الذنوب، ومقادير الثواب، ومقادير الرَّاحة والجمام، والأعالي والأسافل، والأقاصي والأداني، ولَخَّصَ ذلك كله بقوله: «إعْطَاء الحَالاتِ أَقْسَامَهَا من التَّدْبيرِ»(٩٦).

وتأتي فكرة الإسراف ضمن دلائل اختلال الموازين، والمراد بهِ هنا تجاوز الحدِّ المعتاد في مثله، فإذا رضيَ أسرف في رضاه فكافأ بأكثر مما يستحق، وإذا غضب أسرف في غضبه فعاقب بأعظم مما يردع، فعندما يكافئ في حال رضاه مكافآت غير منضبطة

(٩٤) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٣٧.

(٩٥) انظر: الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٣٢.

(٩٦) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٣٣.

ولا خاضعة لمعايير معينة، كانت هذه علامة على أنه سيكون في حال غضبه على الصورة ذاتها غير منضبط ولا خاضع لمعايير، ومن هنا كان تَنَبُّؤ الجاحظ عندما قال: «واللهِ لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ لَكَ سَرَفَ الرِّضَا مَخَافَةَ جَوَاذِبِهِ إلى سَرَفِ الهَوَى، فَمَا ظَنُّكَ بَسَرَفِ الغَضَب...»[٩٧]، ثم يقول: «لَقَدْ كُنْتُ أُشْفِقُ عَلَيْكَ من إفْرَاطِ السُّرُورِ فَمَا ظَنُّكَ بإفْرَاطِ الغَيْظِ»[٩٨].

بل إن ابن الزيات - بسبب اختلال موازين التقدير عنده - لا يستطيع تقدير حجمه هو، ومعرفة قدره؛ وذلك عندما يعادي العقلاء والعلماء، ويستفزُّ أهل الخاصة من جلسائه المطَّلعين على خصوصياته ودقائق أمره[٩٩]. وفي هذا المقام يلمح الجاحظ إلى أصل تكوين ابن الزيات المعرفي، وهي التجارة، فعجزه عن ضبط المقادير دالٌ عن سوء استخدامه لثقافته الأصلية.

كان الجاحظ يهدف من خلال الإلحاح على هذه الفكرة، وكثرة التمثيل عليها، وتثبيتها على ابن الزيات، إلى الوصول إلى أنَّ «مَنْ خَرَجَ من جَمِيعِ الأَوْزَانِ وخَالَفَ جَمِيعَ التَّعْدِيلِ، كَانَ بِغَايَةِ العِقَابِ أَحَقَّ، وبهِ أَوْلَى»[١٠٠].

وبدهاء شديد يتخلَّص الجاحظ من فكرة عدم تقدير الموازين ويحاول إعادتها إلى جذورها التي أنبتتها، فيتوصَّل إلى منفذ آخر يستطيع من خلاله أن يقتصَّ من ابن الزيات، وهو تشبيهه بالصبي المدلَّل، الذي نشأ في الحلية، ولم يعوِّده والده أثناء تربيته على الصبر، ولم ينشِّئه على أن العبرة في النظر إلى عواقب الأمور لا عواجلها، ولم يعلِّمه موضع الحظِّ في تجرُّع مرارة العفو، فلا عجب بعد ذلك إذا اختلطت موازينه

(٩٧) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٣٤.

(٩٨) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٣٤.

(٩٩) انظر: الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٣٣.

(١٠٠) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٣٢.

وتداخلت معاييره؛ لأنه «تَعَوَّدَ إهْمَال النَّفْسِ ولم يُعَوِّدْها الصَّبْرَ»(١٠١)، فهذا الصبي لا تُؤْمَنُ عواقب رضاه، من تَعَـدٍّ وتجاوز على الآخرين، فما بالك بعواقب غيظه.

بل لا يشتفي غيظ الجاحظ حتى يذهب إلى أعمق من هذا، وذلك عندما مارس الإذلال المعرفي على ابن الزيات، فأخبره أنه استطاع بما أوتي من عبقرية ومعرفة بأحوال النفس البشرية أن يقف على جذور هذا الاضطراب في تربية ابن الزيات، من خلال العلامات الدالَّة على ذلك في تصرُّفاته الحاليَّة، وأن يدرك ما ستؤول إليه نفسيته المختلَّة، فعندما كان يراه فيما مضى مُفْرِطًا في سروره ورضاه كالطفل الذي حصل على ألهيته التي يريد فطار بها فرحًا، أدرك بَدَاهَةً أنه سوف يسرف في غضبه؛ ولذا جاء التعريض موجعًا في حسن اختيار الخبر وبراعة توظيفه في التعبير عن المعنى المراد، الذي ألمح به إلى ما يروم، إذ يقول: «وقَدْ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ: لا خَيْرَ فِي طُولِ الرَّاحَةِ إذَا كَانَ يُورِثُ الغَفْلَةَ، ولا في الكِفَايَةِ إذَا كَانَ يُؤَدِّي إلى الـمَعْجَزَةِ، ولا في كَثْرَةِ الغِنى إذَا كَانَ يَخْرُجُ إلى البُلْدَةِ»(١٠٢)، مما يعني بداهة أنه يريد أن يقول له: إنني لا أَجِدُ غرابة عندما أراك قد جمعت بين الغفلة والعجز والبلادة؛ لأنها نتائج تربيتك في بيت أبيك، إذ كنت طفلاً غنيًّا، طويل الراحة، مكفيَّ المؤونة، فمن الطبيعي أن تنشأ على هذه الخلال الذميمة. فإذا أنت قرأت هذا تخايل أمامك خبر الحطيئة مع الزبرقان بن بدر، وكفى به شبيهًا. ولله أبوعثمان، فقد أبلغ في السخرية من ابن الزيات في صغره وكهولته.

---

(١٠١) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٣٤.

(١٠٢) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٣٤. والبلدة: البلادة.

ولم يدع هذه الفكرة تُفْلِتُ منه في مقام آخر من مقامات المحاكاة الساخرة، فقد سخر من مجلس ابن الزيات ووصفه بمجلس اللهو، والخوض في أعراض الناس وغيبتهم وتمنِّي ما في أيديهم، فليس بمجلس علم ولا درس، ولا فائدة فيه للدين ولا للدنيا(١٠٣)، فهي مجالس لا تليق بمن هم في مكانة الجاحظ. بل ذهب يتوعده بأسلوب خفي بأن مجلسه سيخلو من العلماء والعقلاء، ولن يبقى له إلا أمثاله من أصحاب اللهو المساوين له في الطبقة والقدر «قَدْ قَتَلْتَني، فَمَع مَنْ تَعِيشُ؟ أَمَعَ الشِّطْرَنْجِيِّينَ؟»(١٠٤). ثم جعل ذلك سبيلاً ليعود إلى معايرته بطفولته التي أُهملَت فيها طبيعته وتُرِك تأديبه، إذ يرى الجاحظ أن ابن الزيات كان صبيًّا يستثقل الدروس، فتكاسلت نفسه عنها، فزهد فيها وهجرها ولم يَتَلَقَّ العلم على وجهه الصحيح، لا سيما أن والده كان مشغولاً بالتجارة عنه، حتى صار إلى حاله اليوم من عمى البصيرة وكلال حَدِّ الطبيعة(١٠٥).

إن هذه السخرية التي نزع الجاحظ بمقتضاها عن ابن الزيات صفات الرجولة فضلاً عن الحنكة والرزانة، ويجعله من خلالها غِرًّا أحمق أقرب ما يكون إلى الطفولة، لم تكن واضحة مباشرة، بل كانت تستتر خلف الحديث العام والقواعد المرسلة.

ويستثمر الجاحظ أخطاء ابن الزيات، فيجعل من تصرُّفه معه أمرًا مناقضًا لصفة الحزم التي يدعيها، ويزعم أنها إحدى الصفات التي أوصلته للوزارة؛ لأن أفعاله تنافي ما يدَّعيه؛ فـ«الحَازِمَ لا يَلْتَمِسُ شِفَاءَ غَيْظِهِ باجْتِلابِ ضِعْفِهِ، ولا يُطْفِئ نَارَ غَضَبِهِ تَأَخُّرُ عُقُوبَةِ مَنْ أَغْضَبَهُ»(١٠٦)، وهي سخرية تتوارى خلف القواعد العامة للتعامل

(١٠٣) انظر: الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٤٩.

(١٠٤) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٥٨.

(١٠٥) انظر: الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٥٠.

(١٠٦) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٣٤.

الاجتماعي، فما ظنك بمسؤول إداري يفتقد هذه الصفة ! هل يستحق منصبه الذي وصل إليه؟

بل أرجع نظرته إلى أصول أخلاقية وطبائع شاملة عامة حينما رصد طبائع اللؤم التي جُبِلَ عليها الرجل، مثل: تَصَيُّد الأخطاء على الأصدقاء والخلصاء، وتكبير ذنوبهم، وتكثير القليل من زللهم، والمعاقبة على الصغير من هفواتهم، ثم جعل هذه الطبائع أسبابًا مؤدية للعلل التي عايره بها كثيرًا، وهي: المعاقبة على الذنوب التي لا يُعبأ بها أصلاً، والوقوف عند الصغائر، والإفراط في العقوبة، واعتبار قطيعة الإخوان والأصفياء حزمًا[١٠٧]. ويجعل من ذلك كله مادة للسخرية به؛ لأنها ليست من أخلاق السادة الكبراء الذين يتغاضون عن الهفوات، ويتغافلون عن الزلات، ولا يقطعون مُقرَّبًا إلا بعد استنفاد جميع سبل إصلاحه.

وعندما يتَّهمه بالعجلة وعدم التَّثبُّت في مثل قوله: «عَجُولٌ فَحَّاشٌ... والعَجُولُ يُخْطِئُ وإنْ ظَفِرَ»[١٠٨]، فإنما يسخر منه؛ لأنه ينفي عنه صفة الرَّزانة والتأني التي يجب توافرها فيمن هم في مثل منصبه.

كما يبدو جليًّا أن الجاحظ يُدِلُّ بتفوقه الثقافي والأدبي على ابن الزيات، وأن الوزير وإن كان من كُتَّاب الدولة المعدودين، إلَّا أنه لا يُداني الجاحظ ولا يقاربه، ويعمد الجاحظ إلى تذكير ابن الزيَّات بهذه الحقيقة؛ لئلا يعميه منصبه؛ فليس غريبًا أن يقول له: «جُعِلْتُ فِدَاكَ، لا تَتَعَرَّضْ لِعَدَاوَةِ عُقَلاءِ الرُّوَاةِ، ولِضَغِينَةِ حُفَّاظِ المَثَالِبِ، ولِلِسَانِ مَنْ قَدْ عُرِفَ بالصِّدْقِ والتَّوَخِّي وبِقِلَّةِ الخَطَلِ والتَّنَكُّبِ، ما وَجَدْتَ إلى ذلك مَنْدُوحَةً، ووَجَدْتَ المَذْهَبَ عَنْهُ وَاسِعًا»[١٠٩]، ونبرة التهديد الواضحة في هذا الخطاب

(١٠٧) انظر: الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٣٢ و٢٣٥ و٢٣٦ و٢٣٧ و٢٤٥.

(١٠٨) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٣٥.

(١٠٩) الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٣٦.

الخطاب تخفي وراءها امتهانًا واستصغارًا للخصم، وسخرية بذلك الضعيف الذي يُقَاوِي والقصير الذي يُطَاوِل، ويبدو الجاحظ من خلالها مُتَعاليًا مُدِلًّا بجبروت العلم وكبريائه، المتفوِّق على جبروت المنصب وطغيانه.

وعرض الجاحظ لكثير من الأسس الفلسفية التي يمكن أن تضبط سلوك النفس البشرية في حالة شعورها بالإساءة إليها، وجعل من هذه الأسسِ معاييرَ يجب أن يحتكم إليها أهل الود خاصة؛ لئلا يحيف أحدهما على الآخر فيفقدا ما بينهما من وشائج. وختم ذلك بوجوب التغافل والتغاضي ما دام الذنب لا يمسُّ أصول الصداقة وجذورها، إذ إن كثيرًا من الخلافات «لَيْسَ يَقِفُ عَلَيْهَا كَرِيمٌ، ولا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا حَلِيمٌ»(١١٠). وتأمَّل تخصيص صِفَتَي الكرم والحِلْم بالذِّكر بعد ذلك العرض، فإن اختيارهما لم يكن جزافًا، بل كان يهدف إلى نزعهما من ابن الزيات، فليس الكريم من يجود بماله «لَسْتُ أُسَمِّيهِ بِكَثْرَةِ مَعْرُوفِهِ كَرِيمًا»(١١١)، بل «حَتَّى يَكُونَ عَقْلُهُ غَامِرًا لِعِلْمِهِ، وعِلْمُهُ غَالِبًا لِطَبْعِهِ، وحَتَّى يَكُونَ عَالِمًا بما تَرَكَ، وعَارِفًا بما أَخَذَ. واسْمُ الحَلِيمِ جَامِعٌ للكَظْمِ، والقُدْرَةِ، والفَهْمِ»(١١٢). ولا ريب أنه بهذا التفصيل يريد أن يسخر من ابن الزيات ويسلبه إياهما، ومقتضى ذلك أن تكون النتيجة: بما أن ابن الزيات لم يغمر عقلُه علمَه، ولم يغلب علمُه طبعَه، بل كان مختلَّ الموازين لا يعلم ما ترك ولا يعرف ما أخذ، فمن أية الطرق يأتيه الكرم؟! بل لـمَّا أطلق قدرته وأخافنا بقوَّته وجبروته، ولم يستطع كظم غيظه، فمن أين له بالحِلْم؟!

(١١٠) انظر: الجاحظ، في الجد والهزل، ص٢٣٧-٢٣٨.

(١١١) الجاحظ، في الجد والهزل، ص ٢٣٨.

(١١٢) الجاحظ، في الجد والهزل، ص ٢٣٨.

ولم يغفل الجاحظ عن معايرة ابن الزيَّات بأصله، والإلماح إلى صنعته التي دخل إلى بلاط الخليفة من خلالها(١١٣)، ثم اتصاله بالمعتصم الذي «اسْتَوْزَرَهُ وحَكَّمَهُ وبَسَطَ يَدَهُ»(١١٤). إن ذلك كله لم يَغِبْ عن الجاحظ وهو يضربه بسياط السخرية، فيُذَكِّره بماضيه ودوره الأساسي في البلاط، من خلال مخاطبته بلغته التي يفهم بها «لا أَعْلَمُ تِجَارَةً أَكْثَرَ خُسْرَانًا ولا أَخَفَّ مِيزَانًا...»(١١٥)، وهي لغة التجار الذين لا يُهِمُّهُم إلا الربح والخسارة، وفي ذلك تجريد له من صفة الكتابة أو الانتساب إلى العلماء وأصحاب العقل والفهم، لأنه لا يفهم لغتهم.

وتمتدُّ السخرية في سياق الخطاب حينما أشار - بخبث ودهاء - إلى ذلك مرة أخرى، وذلك عندما عاتب ابنَ الزيات على تزيينه النسخ على الجلود، فعقد موازنة بين رأيه ورأي ابن الزيات في جدوى النسخ عليها، واستعرض - بمكر - حجج كل منهما؛ ليجعل القارئَ حَكَمًا بينهما، فيبدأ برأيه هو، إذ يرى أن الجلود «أَكْثَرُ عُقَدًا وعُجَرًا، وأَكْثَرُ خُبَاطًا وأَسْقَاطًا، والصُّفْرَةُ إِلَيْهَا أَسْرَعُ، وسُرْعَةُ انْسِحَاقِ الخَطِّ فيهَا أَعَمُّ. ولَوْ أَرَادَ صَاحِبُ عِلْمٍ أَنْ يَحْمِلَ مِنْهَا قَدْرَ ما يَكْفيهِ في سَفَرِهِ لَمَا كَفَاهُ حِمْلُ بَعِيرٍ»(١١٦). أما ابن الزيات فيُفضِّل الجلود لأنها «أَحْمَلُ للحَكِّ والتَّغْيِيرِ، وأَبْقَى على تَعَاوُرِ العَارِيَّةِ وعلى تَقْلِيبِ الأَيْدِي، ولرَدِيدِهَا ثَمَنٌ، ولطِرْسِهَا مَرْجُوعٌ، والـمُعَادُ منها يَنُوبُ عن الجُدُدِ. وليْسَ لدَفَاتِرِ القُطْنيِّ أَثْمَانٌ في السُّوقِ وإِنْ كَانَ فيهَا كُلُّ حَدِيثٍ طَرِيفٍ، ولَطَفٍ مَليحٍ، وعِلْمٍ نَفِيسٍ. ولَوْ عَرَضْتَ عَلَيْهِمْ عِدْلَهَا في عَدَدِ الوَرَقِ جُلُودًا ثم كَانَ فيهَا كُلُّ شِعْرٍ بَارِدٍ وكُلُّ حَدِيثٍ غَثٍّ، لَكَانَتْ أَثْمَنَ، ولَكَانُوا عَلَيْهَا

(١١٣) سبق الحديث عن ذلك مفصَّلاً في التمهيد، في أثناء مبحث (علاقة الجاحظ بابن الزيات)، انظر: ص٨.

(١١٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ج٥، ص٩٥.

(١١٥) الجاحظ، في الجد والهزل، ص ٢٣٣.

(١١٦) الجاحظ، في الجد والهزل، ص ٢٥٣.

أَسْرَعَ»[١١٧]. ويُلاحَظُ أن الرجلين وإن تحاجَّا في شيء واحد، إلا أنَّ كُلًّا منهما كان ينظر من زاوية مختلفة عن الآخر؛ نظرًا لاختلاف منطلقاتهما، فقد انطلق الجاحظ من نظرة العالم الذي يهتم بمحتوى الأوراق وفحواها، أما هي فلا تعدو أن تكون وعاءً مُلئَ عِلْمًا، ولذلك جاءت زاوية نَظَرِهِ محددة للبحث عن أخف الأوراق وزنًا لئلا تُكْلِفَ في السفر، وأقلها مؤونة، وأدومها محافظة على ما فيها. بينما انطلق ابن الزيَّات من منطلق حجاجي آخر، فتحدَّث بمنطق التاجر الذي يتحدث عن القيمة السوقية للجلود؛ وتداولها التجاري، دَلَّ على ذلك براهينه وحججه التي كانت تجارية بحتة، ودارت فيها مفردات التجار مثل: ثمن الرديد، ونيابة المستعمل عن الجديد، وأثمان السوق، والبحث عن الأثمن والأرغب للزبائن!

إن هذا العرض الحجاجي كان مقصودًا لغيره، فقد أراد الجاحظ أن يكشف فرقَ ما بين العقليَّتيْن، وتَبَايُنَ الاهتمامات، وتباعد الغايات، أراد أن يسخر من ابن الزيات وأن يقول له: إنك لا تُفارق طبعك ولن تعدو طورك، وإن انتسبتَ للكُتَّاب والأدباء، بل وإن أصبحتَ وزيرًا.

وكان من قَدَرِ ابن الزيات أنْ تعرَّضَ إلى قضية جوهرية في حياة الجاحظ، بل هي حياته كلها، وهي علاقته مع الكتاب، فاتَّهمه بالفوضى في مجال العلم والمعرفة، وعدم ترتيب فصول كتبه، وتَرْك الكراريس متفرقة مبثوثة، وعدم اختيار الأوراق المناسبة للتأليف، «سَمِعْتُكَ وأَنْتَ تُرِيدُني وكَأَنَّكَ تُرِيدُ غَيْرِي، وكَأَنَّكَ تُشِيرُ عَلَيَّ من غَيْرِ أَنْ تَنُصَّني...»[١١٨]، وهو - بالجملة - تعريضٌ بالجاحظ في عدم إتقانه صناعة الكتب وترتيبها!

---

(١١٧) الجاحظ، في الجد والهزل، ص ٢٥٣.

(١١٨) الجاحظ، في الجد والهزل، ص ٢٤٦.

وهي وإن كانت مسألة ثانوية بالنسبة إلى الجاحظ ؛ لأن ابن الزيات لم يستطع نقد أفكاره في مصنفاته، أو مؤاخذته على المعاني التي تطرَّق إليها في كتبه، أو تتبّع هفواته العلمية ؛ ولذا مضى يتحدَّث عن صنعة الكتب ونسخها وتجليدها، مما هو من صناعة النُّسَّاخ وتجار الكتب، لا صناعة المصنِّفين وأصحاب التآليف. إلا أن الجاحظ لم يتجاهل هذا التعريض، بل راح يجيب ابن الزيات عن مختلف إشكالاته، ويوقفه على ما جهل من أمره.

وجرى في معرض هذه الإجابة ألوانٌ من السخرية المبطَّنة، والامتهان العلمي، كان أولها: أنْ وصف تعريض ابن الزيات به بأنه «نَصِيحَةُ حَازِمٍ، ومَشُورَةُ وَامِقٍ»[١١٩]، وهو وصف لم يَجْرِ على حقيقته قطعًا ؛ لاسيما إذا عرفنا أن الجاحظ كان يدرك خبيئة نفس ابن الزيات عليه، إذ قال له سابقًا: «لَيْسَ هذا بأَوَّلِ شَرَكٍ نَصَبْتَهُ، ولا أَوَّلَ كَيْدٍ أَرَغْتَهُ، ولا هِيَ بأَوَّلِ زُبْيَةٍ غَطَّيْتَهَا وسَتَرْتَهَا، وحِيلَةٍ أَكْمَنْتَهَا ورَبَصْتَهَا»[١٢٠]. ثم سخر منه مرة أخرى حين وصف رأيه بأنه «رَأْيٌ حَضَرَ، أو حِكْمَةٌ نَبَغَتْ، أو صَدْرٌ جَاشَ فلم يُمْلَكْ، أو عِلْمٌ فَاضَ فلم يُرَدَّ»[١٢١]، ولا يخفى أنها محاكاة ساخرة لمقام جَادٍّ، فهو يريد أن يقول له: وعلى فرض صواب رأيك، فإنه رأيٌ حضر في ساعته دون تبييتٍ، وحكمة نبغت في موضعها دون تخمير، وصدر فاض فجأة فلم يشعر به صاحبه. إن هذه الصفات تنطبق على الرأي إذا جاء من غير صاحبه، وممن لا يُنتظَر منه ولا يُتوقَّع صدوره منه، وكأنه رمية من غير رامٍ، يدل على ذلك أنه أكَّدها بسخرية أخرى، إذ أعقبها بقوله في الفقرة التالية: «فَلَمَّا أَخَذْتُ بقَوْلِكَ، وصِرْتُ إلى

(١١٩) الجاحظ، في الجد والهزل، ص ٢٤٧.

(١٢٠) الجاحظ، في الجد والهزل، ص ٢٤١.

(١٢١) الجاحظ، في الجد والهزل، ص ٢٤٨.

مَشُورَتكَ، وأَكْثَرْتُ حَمْدَ اللهِ على إفَادَتِكَ من العِلْمِ وحَظِّ عِنَايَتِكَ من النَّقْلِ»[١٢٢]، وهي سخرية في طَيِّ مدح، وهُزْؤٌ في لفائف تبجيل؛ لأنه بيَّن عوار هذا الرأي من خلال تفصيل الحديث عن السلبيات الكثيرة التي ترتبتْ على الأخذ به[١٢٣].

ثم يستأنف صورة جديدة من صور السخرية، فيصفه بالخبرة بالمقابح عامة «وقَدْ عَلِمْتَ - أَبْقَاكَ اللهُ - مَع خِبْرَتِكَ بِمَقَابِحِ الأُمُورِ»[١٢٤]، جاعلاً منها مقدِّمة لسخرية أكبر منها، حينما يصوِّر نفسه سماءً عالية رفيعة، ويجعل ابنَ الزيَّات كالغِرِّ الأحمق الذي يصعد على شرفات قصر أو مقطع جبل، ويظن أنه يستطيع أن يطاول هذه السماء أو ينالها بيده، فلما عجز وأدرك أن عينه غرَّته نظر إلى الأرض، فإذا هو ابتعد عنها على قربها، فوجد الوصول إليها عبئًا ثقيلاً «مَنْ كَانَ على مَقْطَعِ جَبَلٍ، أو على شُرُفَاتِ قَصْرٍ، فَأَرَادَ رُؤْيَةَ السَّمَاءِ على بُعْدِهَا، وَجَدَ ذلك على العَيْنِ سَهْلاً خَفِيفًا، وإنْ أَرَادَ أَنْ يَرَى الأَرْضَ على قُرْبِهَا، وَجَدَ ذلك على العَيْنِ عِبْئًا ثَقِيلاً»[١٢٥]، ولا تخفى الإشارات الذكية من الجاحظ، فإن مقطع الجبل وشرفات القصر هي الوزارة التي يعتمد عليها ابن الزيات ويتطاول بها ليبلغ السماء التي ترمز للجاحظ هنا، ويريد الجاحظ أن يقول لخصمه: إنك تتطاول إليَّ محاولاً أن تبلغ قدري، وتظن أنَّ منصبك العالي سيحقق لك هذه الأمنية، وضرب له هذا المثل ليجعل حجم ابن الزيات ضئيلاً جدًّا بالمقارنة به، وأن الوزارة التي يباهي بها لن تجعل منه مثقفًا عظيمًا بمستوى الجاحظ. ولذا فهو يصوِّره كالـمُنْبَتِّ الذي لا ظهرًا أبقى ولا أرضًا قطع.

---

(١٢٢) الجاحظ، في الجد والهزل، ص ٢٤٨.

(١٢٣) انظر: الجاحظ، في الجد والهزل، ص ٢٤٨.

(١٢٤) الجاحظ، في الجد والهزل، ص ٢٤٩.

(١٢٥) الجاحظ، في الجد والهزل، ص ٢٤٩.

الخاتمة

جاءت هذه الدراسة لتكشف حقيقة علاقة الجاحظ بابن الزيات، بعد أن أَلَـمَّتْ بشيء من سيرتيهما، وحدَّدتْ زمان اتصالهما ببيت الخلافة، ووقت تعارفهما على وجه التقريب، جاعلة من ذلك كلِّه مِهَادًا للحديث عن قدرة الجاحظ على توظيف الأساليب التعبيرية المختلفة، وعلى تحويل أدب الصداقة في غرض العتاب إلى خطاب غنائي ذي قيمة انفعالية تعبيرية.

وقد ساعدتْ طبيعة موضوع الرسالة على الاستعانة بالأساليب الإنشائية التي تخدم الغاية المقصودة، فإذ دارت الأفكار حول العتاب والشكوى والتحذير...، فقد كان طبيعيًّا أن يتردَّد الاستفهام بصِيَغِه المختلفة، ما بين الحقيقي الذي يوجهه الجاحظ نحو الغايات التي يريد، فاستفهم عن أسباب جفوة ابن الزيات له، وتَغَيُّره عليه، وحيرته الدائمة في البحث عن مخرج من هذا كله. ثم يخرج عن هذا الاستفهام الحقيقي إلى سياقات أخرى، فاستثمر سياق التقريع ليجعل من وظيفته الحجاجية سبيلاً للتبكيت والتخجيل، ولإقامة الحجة العقلية على خصمه، وسياق الإنكار ليجعل من وظيفته الحوارية وسيلة لإقناع الخصم بأخطائه المتكررة.

وكان الذهول الذي اكتنف الجاحظَ سببًا لبروز صيغة التعجب، شعورًا بالخيانة من صديقه، وخيبة أمل كبيرة بنديمه، وإذ بالصديق يتحول مع الأيام إلى عدوٍّ يتحيَّن الفرص للانقضاض عليه. وقد عدَّد في سبيل ذلك مواقف وأفكارًا مختلفة، جعلها المحور الذي دار عليه عَجَبُه، مستغربًا مرة ومعاتبًا مرة أخرى، ومضى يستعرض تاريخ علاقتهما في ذهنه، متوقِّفًا عند كل ما يدعو للعجب من تصرفات ابن الزيات معه، متخذًا من أسلوب المقارنات وسيلة يدعم بها نتائجه التي يُدين بها خصمه.

ويجيء التحضيض مرشدًا ودالًّا على الأساليب الصحيحة التي كان ينبغي على ابن الزيات أن يستخدمها في تعامله مع الجاحظ، ويبدو الجاحظ في هذه الوظيفة أستاذًا ومعلِّمًا للوزير الأديب. وقد حاول أن ينأى بهذه الوظيفة عن أسلوبها الظاهر المحدَّد بصيغ معلومة معروفة، بل جعله متماهيًا مع الغرض الرئيس للرسالة، فمزج التحضيض بالعتاب، وجعل الأول عتبة للثاني، فحضَّه على التؤدة والتعقُّل، وعدم الاستسلام لثورة الغيظ، والإحسان إلى الصديق الوَادِّ، وعدم مصاولة العلماء، فجمع بين الحضِّ على مكارم الأخلاق وعلى النظر في العواقب والتراجع دون المهالك. وكان بكل هذا طبيبًا نفسيًّا مروِّضًا لمخاطبه، معالِجًا لما تبطنه نفسه من عُقَدٍ مضرَّة بواجب الصداقة والمروءة، ولا يمكن لأية وظيفة من وظائف اللغة أن تحقق هذا العلاج قدر ما تحققه الوظيفة التعبيرية.

ويستثمر موهبته الساخرة في الانتقام من خصمه، وبالرغم مما يعانيه من ألم وحزن، إلا أنه لم يجعلها سخرية ضاحكة أو هازئة، بل أراد أن يبلغ من خصمه مقتلاً أبعد من هذا، أراد أن يسقطه من أعين الخاصة، لا أن يُضحك عليه العامة، وذاك هو صراع الكبار. لذا سخر من صفات خصمه الدنيئة، ومن تصرفاته الرديئة، ونثر ذلك في ثنايا رسالته، واستغل الفُرَص كلها، وكان يدرك أنه ما دام حدَّد نقطة الارتكاز التي تتمثّل في عقدة الحسد عند خصمه، فلا عليه بعد ذلك أن يعيد إليها جميع التصرفات التي تصدر منه.

ولا مراء في أن طول معاشرة الجاحظ لابن الزيات مكّنته من الاطلاع على عيوبه وسلبياته، وجعلته واضحًا مكشوفًا أمامه؛ ولذا فمن غير المستغرب أن نجده يسخر من صفة الحسد التي بُلِيَ بها، وليست من صفات السادة الكبراء، إذ لا يمكن للحسود أن يسود، وما تَوَلَّدَ من ذلك، كالغضب من الصغائر، والحماقة، ومقارنة

أفعاله بعلوِّ منصبه، والخلل في تربيته؛ إذ نشأ مُدلّلاً لم يتعلّم الصبر على ما يكره ليصل إلى ما يريد، ومعايرة ابن الزيات بأصوله وعلاقته السابقة بالقصر؛ مما ترتَّب عليه اختلاف نظرتيهما للشيء الواحد؛ إذ ينطلق كل منهما من أصوله وتربيته وثقافته. ويخلص من هذه السخرية كلها إلى احتقار ابن الزيات وامتهانه حينما يجعل من نفسه سماءً عالية رفيعة، ومن ابن الزيات رجلاً يصعد على جبل ويظن أنه يطاول هذه السماء.

ولعل الجاحظ استطاع من خلال هذه الأساليب التعبيرية، ومن خلال ما أدَّته من وظائف مختلفة، أن يبلغ من خصمه ما لم تبلغه السهام والرِّماح.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

المصادر والمراجع

[١] إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (معجم الأدباء)، ياقوت الحموي، تحقيق: د.إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

[٢] الأغاني، أبوالفرج الأصفهاني، شرحه: سمير جابر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:٢، ١٩٩٢م.

[٣] تاريخ الأدب العربي (العصران العباسيان الأول والثاني)، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط:١١، ١٩٩١م.

[٤] تاريخ الرسل والملوك، الطبري، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، سلسلة ذخائر العرب، دار المعارف، مصر، ط٢، د.ت.

[٥] ديوان ابن الزيات، شرحه وحققه: جميل سعيد، المجمع الثقافي، أبوظبي، ط٢، ١٩٩١م.

[٦] رسالة في الجد والهزل (ضمن رسائل الجاحظ)، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١ه.

[٧] الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم، صالح الهادي بن رمضان، بيروت، دار الفارابي، ط٢، ٢٠٠٧م.

[٨] النثر العربي ببغداد، شارل بيلا، حوليات الجامعة التونسية، العدد: ٢٤، عام: ١٩٨٥م.

[٩] اللغة، ضمن سلسلة: دفاتر فلسفية، نصوص مختارة، إعداد وترجمة: محمد سبيلا وعبدالسلام بنعبدالعالي، دار توبقال، الدار البيضاء، ط: ٥، ٢٠١٠م.

[١٠] وفيات الأعيان، ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت.

Expressive Functions in Al-jahz's Literary Epistles A message in a serious and humor model (Structural study)

Dr. Saleh bin Abdullah bin Saleh Altwaijiry
Assistant Professor in the Department of Literature, Faculty of Arabic Language, Imam Muhammad bin Saud Islamic University.

Abstract. In this massage, a form of creativity of Al-Jahiz and splendor of his statement. Manifested in the case of a different case that knew him because we knew the merrier joking seriously confused amusement in many of his works. But he appeared here a broken soul he showed signs of human weakness, which admonishes bitterly and implores proudly.

This message shorten the twelve years he spent in the company with AL-ZAYYAT. It was natural that pages are filled much of question and exclamation and then induces multiple images of parodies and all of them formed this study.